حَاشِيَة الإِسرَافِيلِيّ
عَلَى ستّة مَوَاضِع منَ السِّيرَة

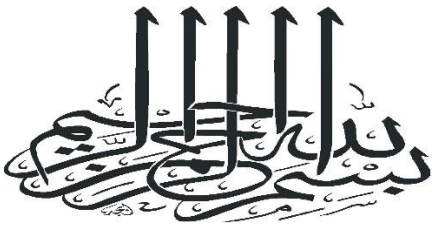

جميعُ حقُوقُ
الطبعِ محفُوظة

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ

سِتَّةُ مَواضِعَ مِنَ السِّيرَة

لِلشَّيْخِ الإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الوَهَّابِ النَّجْدِيِّ

(المتوفى: ١٢٠٦هـ)

ومعه

حَاشِيَةُ الإِسْرَافِيلِيِّ

عَلَى سِتَّةِ مَواضِعَ مِنَ السِّيرَة

تأليف أَبي مَشْكُور الإِسْرافِيلي

عَبدِ الشَّكُور بن عَليِّ بن عَبد الله الصَّومَالي

كَانَ اللهُ مَعه في الدُّنيا والآخِرة

المقدّمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أمَّا بعد:

فإن من المقرَّر عند أهل العلم أن في السِّير والتاريخ فوائد جليلة، وعبرا عظيمة، يستنبط منها العلماء أحكاما عديدة، ومعرفة أهمية أمور كثيرة، وكان من المستنبطين من السِّيرِ والتَّاريخِ الإمام العلَّامة محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى رحمة واسعة، فقد استنبط منها في هذه الأوراق المباركة أهمية التوحيد وحقيقته، وأن عناية هذه الشريعة بأمر التوحيد وتطبيق (لا إله إلا الله) مع شروطها أعظم من كلِّ شيء، وذلك بمعرفة بعض الوقائع التي تشير إلى أهمية هذا الأمر العظيم، ومقصودنا من هذه الحاشية توضيح كلام الشيخ وتأييده أوتقييده، والحمد لله ربِّ العالمين.[1]

(١) ولا أعرف لهذه الرسالة شرحا غير شرح العلامة الفوزان، وهو مفرغ من الأشرطة.

ترجمة المصنِّف

اسمه ونسبه: الإمام الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن مشرف بن عمر من أوهبة بني تميم.

مولده: ولد هذا العالم (١١١٥) هجرية في بيت علم وشرف ودين، فأبوه عالم كبير وجده سليمان عالم نجد في زمانه.

نشأته: حفظ القرآن قبل بلوغ عشر سنين، ودرس في الفقه حتى نال حظًا وافرًا، وكان موضع الإعجاب من والده لقوة حفظة، وكان كثير المطالعة في كتب التفاسير والحديث، وجد في طلب العلم ليلًا ونهارًا فكان يحفظ المتون العلمية في شتى الفنون، ورحل في طلب العلم في ضواحي نجد وفي مكة وقرأ على علمائها، ثم رحل إلى المدينة النبوية فقرأ على علمائها ومنهم العلامة الشيخ إبراهيم الشمري مؤلف العذب الفائض في شرح الفية الفرائض وعرفاه بالمحدث الشهير محمد حياة السندي، فقرأ عليه في علم الحديث ورجاله وأجازه بالأمهات، وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد وهبه الله فهمًا ثاقبًا وذكاء مفرطًا، وأكبَّ على المطالعة والبحث والتأليف، وكان يثبت ما يمر عليه من الفوائد أثناء القراءة والبحث، وكان لا يسأم من الكتابة، وقد خطَّ كتبًا كثيرة من مؤلفات ابن تيمية وابن القيم – رحمها الله – ولا تزال بعض المخطوطات الثمينة بقلمه السيال موجودة بالمتاحف.

ولما توفّي والده أخذ يعلن جهرًا بالدعوة السلفية إلى توحيد الله وإنكار المنكر ويهاجم المبتدعة وغيرهم من المشركين، وقد شد أزره الولاء من آل سعود وقويت شوكته وذاع خبره.

مؤلفاته:

له - رَحِمَهُ ٱللَّهُ- مؤلفات نافعة نذكر منها:

١) الكتاب الجليل المفيد المسمى "كتاب التوحيد".٢) كشف الشبهات.

٣) الكبائر. ٤) مختصر الإنصاف والشرح الكبير.

٥) مختصر زاد المعاد. ٦) فتاوى ورسائل جمعت باسم مجموعة مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب تحت إشراف جامعة الإمام محمد بن سعود.

ثناء العلماء عليه:

قال الصنعاني في أبيات له:

سلامي على نجد ومن حل في نجد وإن كان تسليمي على البعد لا يجدي

ثم قال:

وقد جاءت الأخبار عنه بأنه يعيد لنا الشرع الشريف بما يبدي
وينشر جهرًا ما طوى كل جاهل ومبتدع منه فوافق ما عندي
وَيْعمُر أركانَ الشريعة هادمًا مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد

وقال الشوكاني في البدر الطالع في ترجمة غالب بن مساعد أمير مكة (٢/ ٧): "وصل من صَاحب نجد الْمَذْكُور مجلدان لطيفان أرسل بهما إِلَى حَضْرَة مَوْلَانَا الإِمَام حفظه الله أَحدهمَا يشْتَمل على رسائل لمُحَمد بن عبد الْوَهَّاب كلهَا فِي الْإِرْشَاد إِلَى إخلاص التَّوْحِيد والتنفير من الشرك الذي يَفْعَله المعتقدون فِي الْقُبُور وهي رسائل جَيِّدَة مشحونة بأدلة الْكتاب وَالسّنة".

وفاته: قد توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عام (١٢٠٦ هـ) فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين ﷺ على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. (١)

❁ ❁ ❁

(١) انظر مقدمة فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان على شرح كشف الشبهات للعلامة ابن عثيمين، وعنوان مجد في تاريخ نجد، والإمام محمد بن عبد الوهاب وسيرته لابن باز.

[مُقدّمَةُ المُصنِّف](١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٢)

---

(١) المقدمة في الأصل صفة، لأنها اسم فاعل، ثم نقلت من الوصفية، وجعلت اسما لمقدمة الجيش، ثم نقلت من مقدمة الجيش إلى مقدمة الكتاب أو العلم، ويجوز فيها كسر الدَّال وفتحها، فالمقدِّمة بكسر الدَّال اسم فاعل من (قدم)، بمعنى (تقدَّم) ومعناه أنها تكون مقدمة لك أيها القارئ لما فيها من بيان مقصود الكتاب.

والمقدمة بفتح الدال اسم مفعول من (قدَّمت الشيء) أي: جعلته مقدما، أي: أن هذه الكلمات مقدَّمة على الكتاب أمام المقصود ليسهل على الطالب فهم موضوع الكتاب.

والمقدمة مقدمتان: مقدمة علم ومقدمة كتاب. فالأولى: ما يتوقف فهمه بفهم ذاك العلم، وهي المسمَّى عندهم المبادئ العشرة. والثاني: ما ينبغي أن يذكر المصنِّف أمام المقصود.

قال بعض العلماء: ينبغي لكل شارع في التصنيف أن يذكر ثمانية أشياء: منها أربعة واجبة وجوبا صناعيا وهي البسملة، والحمدلة، والصلاة على رسول الله ﷺ، والشهادتان. ومنها أربعة مستحبة وهي: تسمية الكتاب، وتسمية المصنِّف، ولفظ (أمَّا بعد) والاتيان بما يدل على المقصود، ويقال براعة الاستهلال. انظر الكواكب الدرية (ص/ ٨) ونزهة الخاطر العاطر شرح روضة الناظر (١/ ٣٣).

(٢) ابتدأ المصنف رحمه الله كتابه بالبسملة كما هي عادة المصنِّفين اقتداء بكتاب الله عز وجل لكونه مبدوء بالبسملة، واقتداء برسول الله ﷺ، فإنه كان يبتدئ رسائله بالبسملة، فقد ورد في الصحيحين عن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، أَخْبَرَهُ: أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا تِجَارًا بِالشَّأْمِ، فَأَتَوْهُ، قَالَ: ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُرِئَ، فَإِذَا فِيهِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، السَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ».

وهي كذلك سنَّة الأنبياء فقد كتب سليمان عليه السلام البسملة في رسالته التي أرسل إلى ملكة سبأ، كما حكى الله عنه: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة النمل: ٢٩-٣١].

يقول القرطبي رحمه الله: "اتفقت الأمة على كتابتها فِي أَوَائِلِ الْكُتُبِ وَالرَّسَائِلِ."

انظر تفسير القرطبي (١/ ٩١-٩٥) وحاشية ابن حمدون على المكودي (١/ ٧) والفتح للحافظ (١/ ٨).

تأمَّل[١] رحمك الله[٢] ستَّةَ مواضع من السيرة،[٣] وافهمها فهما حسنًا،[٤] لعلَّ الله أن يفهمك دين الأنبياء لتتبعه،[٥]

---

(١) التأمُّل هو النَّظَر في الشَّيْء وَتدبره وَإِعَادة النّظر فِيهِ مرّة بعد أُخْرَى لطلب اليقين. المعجم الوسيط.

(٢) دعاء لك بالرحمة، أي: غفر الله لك ما مضى ووفقك وعصمك فيما يستقبل، وإذا قرنت الرحمة بالمغفرة فالمغفرة لما مضى، والرحمة: سؤال السلامة من ضرر الذنوب وشرها في المستقبل.

ولم يقل المصنف: (غفر الله لك) لأنها خاصة بالماضي، فلا تشمل المستقبل.

وكثيرًا ما يجمع رحمه الله -عندما يرشد الطالب بتقرير الأصول المهمة- بينها وبين الدعاء له، وهذا من حسن عنايته ونصحه وقصده الخير للمسلمين.

انظر حاشية ثلاثة الأصول لابن قاسم (ص/ ١٤). وشرح ابن حميد (ص/ ١١).

(٣) المراد بها سيرة النبي ﷺ، وهي الطريقة التي كان يسير عليها الرسول ﷺ منذ بعثته إلى أن توفاه الله جَلَّوَعَلَا في العبادة وفي المعاملات، وفي الدعوة إلى الله جَلَّوَعَلَا، وفي الجهاد والهجرة والتعليم... والمقصود من دراسة سيرة الرسول ﷺ هو الاعتبار والعمل وأخذ الأحكام منها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب (٢١)].

انظر شرح ستة مواضع من السيرة للعلامة الفوزان (ص/ ٥١-٥٣). ضمن شرح الرسائل.

(٤) في نسخة: فهما جيدًا.

(٥) أي: بهذه الستة المواضع، ودين الأنبياء هو توحيد الله جَلَّوَعَلَا، وفي هذه القصص إشارة إلى أهمية أمر التوحيد، وهذا يعطيك وجوب الاهتمام بأمر العقيدة وأمر التوحيد والفقه في ذلك.

قال المصنف: "فالله الله - إخواني - تمسكوا بأصل دينكم أوله وآخره، أسه ورأسه، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، واعرفوا معناها، وأحبوا أهلها واجعلوهم إخوانكم، ولو كانوا بعيدين، واكفروا بالطواغيت وعادوههم وأبغضوا من أحبهم أو جادل عنهم أو لم يكفِّرهم، أو قال: ما عليَّ منهم! أو قال: ما كلفني الله بهم! فقد كذب على الله وافترى، بل كلفه الله بهم وفرض عليه الكفر بهم والبراءة منهم ولو كانوا إخوانه وأولاده".

انظر شرح ستة مواضع من السيرة للفوزان (ص/ ٥١-٥٣) والدرر السنية (٢/ ١١٩).

ودين المشركين لتتركه،[١] فإن أكثر من يدَّعي الدِّين،[٢] ويدَّعي[٣] أنه من الموحِّدين، لا يفهم معنى الستَّة كما ينبغي.[٤]

❁ ❁ ❁

(١) أي: لتجتنبه ولا تقع فيه من حيث لا تشعر، وذلك لأنه من الكفر بالطاغوت، وقد جاء في الصحيحين عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: "كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي."

يقول الشاعر: عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه *** ومن لا يعرف الخير عن الشر يقع فيه

قال المصنف: "ومعنى الكفر بالطاغوت أن تبرأ من كل ما يعتقد فيه غير الله من جني أو إنسي أو شجر أو حجر أو غير ذلك، وتشهد عليه بالكفر والضلال وتبغضه ولو كان أباك وأخاك. فأما من قال: أنا لا أعبد إلا الله وأنا لا أتعرض السادة والقباب على القبور وأمثال ذلك، فهذا كاذب في قول لا إله إلا الله، ولم يكفر بالطاغوت". انظر الدرر السنية (٢/ ٢٢١).

(٢) أي: الذين ينتسبون إلى الإسلام.

(٣) في نسخة (ويعد من الموحِّدين). كما في الدرر السنية (٧/ ٥٣).

(٤) أي: معنى هذه المواضع الستة وما يفهم منها ومضمونها ومفادها، ولا يتأمل فيها حتى يستنبط منها.

المَوضِعُ الأَوَّل: قِصَّةُ نُزُولِ الوَحيِ [١]

(١) أي: بدء الوحي على الرسول ﷺ وإرساله إلى الناس، فهذا البدء إضافي، بالنسبة إلى ما بعده، وإلا فقد كانت قصة نزول الوحي قبل هذه، وأنزلت حينذاك بعض سورة العلق، كما ورد في البخاري برقم (٣) ومسلم (١٦٠) عن عائشة رضي الله عنها. وقي قول المصنف (أرسله الله بها) إشارة إلى أن المقصود بدء الرسالة لا بدء النبوَّة فتأمَّل.

ومراد المصنف من ذكر هذا الموضع بيان أهمية التحذير من الشرك والأمر بالتوحيد، وأن رأس هذا الدين وأصل أصوله وأساس أمره التوحيد، المتضمَّن في الشهادتين العظيمتين؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويبيِّن المصنف أهمية ذلك مستنبطا من هذه القصة بأمور:

الأوَّل: كون هذه الآيات أوَّل آيات الإرسال، وفيها الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك.

والثَّاني: مكوث النبي ﷺ بمكة عشر سنوات من بعثته، وكلها كانت في بيان التوحيد والتحذير من ضده، وليس معنى ذلك أن النبي ﷺ ما كان يرشدهم إلى أبواب الخير وإنما المراد أن المعركة الكبرى كانت في ذه، وما كان الأمر بها أيضا على سبيل الوجوب، كالصلاة وغيرها.

والثَّالث: فرضية الصلاة وما بعدها من الأركان بعد هذه المدَّة كلها.

والرَّابع: وقوع أكثر أذى المشركين وعداوتهم عند هذه المسألة قبل فرضية الصلاة.

والخامس: كون بعض المشركين يعملون كثيرا من الأعمال الصالحات كالصيام الحج والعمرة، والصدقة على المساكين، والإحسان إليهم، وغير ذلك، مع أنه أوَّل ما أمرهم به التَّوحيد، فما كانت مقصود الرسالة الأمر بتلك الأعمال، لأنهم كانوا يفعلونها قبل.

والسَّادس: كون بعض المشركين يعملون كثيرا من المعاصي والذنوب، كالزنى والسرقة والظلم، ومع ذلك فأوَّل ما بدأ به الإنذار عن الشرك، قبل الإنذار عن الزنى والسرقة وغيرهما.

والسَّابع: أن المشركين كان منهم من تعلق على الأصنام، ومنهم من تعلق على الملائكة، وعلى الأولياء من بني آدم، وهم يقولون: ما نريد منهم إلا شفاعتهم، ومع هذا بدأ بالإنذار عن هذا الفعل قبل الزنى وغيره.

قال المصنف: "فمن فهم أن هذه أول آية أرسله الله بها: عرف أنه سبحانه أمره أن ينذر الناس عن الشرك الذي يعتقدون أنه عبادة الأولياء ليقربوهم إلى الله قبل إنذاره عن نكاح الأمهات والبنات. وعرف أن قوله =

وفيها[١] أنَّ أوَّل آية أرسله الله بها[٢]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ [سورة المدثر: ١-٢]

= تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ [المدثر: ٣] أمر بالتوحيد قبل الأمر بالصلاة وغيرها. وعرف قدر الشرك عند الله وقدر التوحيد".

وبهذا يظهر خطأ أكثر الدعاة الذي يجهلون هذه الحقيقة، فتجد أنهم لا يبدءون بهذا الأمر في دعوتهم، بل ربما يتكلمون عن الصلاة والزكاة قبل بيان التوحيد، بل بعضهم يتكلم عن محاسن الزواج وأحكام الطلاق قبل التحذير من الشرك، ولذلك أن أكثر هذه الدعوات فشلت وما نجحت، وهكذا مآل كل دعوة أغفلت أو تجاهلت عن بيان التوحيد، والتحذير من الشرك.

ولذلك يقول العلامة النحرير محمد بن إبراهيم آل الشيخ: "أُوجه خطابي هذا إلى كافة المسلمين حول تحقيق معرفة ما هم إليه أَشد شيء ضرورة من بيان حقيقة ما بعث الله به رسوله ﷺ، بل ضرورتهم إلى ذلك أَعظم من ضرورتهم إلى الطعام والشراب، بل أَعظم وأَكبر من ضرورتهم إلى النفس، وأَجد من يتكلم عن الأمور الدينية أَكثرهم أَو كلهم إلا من شاء الله لا يكتبون ولا يرشدون إلا في أُمور هي في الحقيقة من الفروع والمكملات، فتجد الكاتب وتجد المرشد لا يتكلم إلا حول فرضية الصلاة مثلا ووجوب فعلها في جماعة أَو الحج، أَو صيام رمضان، أَو الزكاة وأَشباه ذلك. أَو في أَشياء من المحرمات كالربا والتعدي على الأَنفس والأَموال والأَعراض وغير ذلك من المعاصي والمخالفات، ونعم ما فعلوا، وحسن طريقًا ما سلكوا ولكنهم كانوا عن أَهم الأَهم في بعد إلى الغاية". اهـ بتصرف.

انظر مختصر السيرة للمصنف (ص/ ٣٤) وفتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم (١/ ٨٦).

(١) أي: في قصة نزول الوحي، وليست هذه الآية أوَّل آية نزلت على الصحيح، والله أعلم.

(٢) أي: أنَّ أول سورة أُنزلت عليه صلى الله عليه وسلم في رسالته هذه السورة، وذلك لأنه كانت الحال الأولى حال نبوة وإيحاء، ثم أمره الله في هذه الآية أن ينذر قومه ويدعوهم إلى الله، فشمر ﷺ عن ساق التكليف، وقام في طاعة الله أتم قيام، يدعوا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكبير والصغير، والحر والعبد، والرجال والنساء، والأسود والأحمر، فاستجاب له عباد الله من كل قبيلة.

وفي الصحيحين من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: "بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ =

إلى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ [سورة المدثر:٧]. (١)

فإذا فهمتَ أنهم(٢) يفعلون أشياء كثيرة،(٣) يعرفون أنها من الظُّلم والعُدوان، مثل الزِّنى وغيره.(٤)

= وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي " فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ٢] إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]. فَحَمِيَ الوَحْيُ وَتَتَابَعَ".

والحديث أخرجه البخاري برقم (٤) ومسلم برقم (١٦١) وانظر الفصول في سيرة الرَّسول (ص/ ٣٩).

(١) قال العلامة السعدي في تفسيره (ص/ ٨٩٤): "أمر [الله نبيَّه] هنا بإعلان الدعوة، والصدع بالإنذار، فقال: ﴿قُمِ﴾ [أي] بجد ونشاط ﴿فَأَنْذِرْ﴾ الناس بالأقوال والأفعال، التي يحصل بها المقصود، وبيان حال المنذر عنه، ليكون ذلك أدعى لتركه، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله، وأن يعظمه العباد ويقوموا بعبادته."

(٢) أي: الذين أنزل عليهم القرآن، وهم كفار قريش.

(٣) أي: من الجرائم، حتى تفهم أنه لم يُلتفت إلى تلك الجرائم في أول الأمر، لأن هناك أبشع منها.

(٤) كالسرقة وقتل النفس وغير ذلك مما أجمله حذيفة بن اليمان كما جاء في الصحيحين بقوله: "إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ".

وفصَّله جعفر ابن أبي طالب كما في حديث أمّ سلمة، بقوله: "كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ".

والحديث في الصحيح المسند للعلَّامة الوادعي رحمه الله.

وعرفت أيضا أنهم يفعلون شيئا[١] من العِبَاداتِ،[٢] يتقرَّبون بها إلَى الله،[٣]

---

(١) في الدرر السنية: (أشياء كثيرة).

(٢) أي: يفعلون شيئا من العبادات، يتقربون بها إلى الله، وإن لم تكن مقبولة، ويدل على ذلك ما رواه مسلم عن حكيم بن حزام أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: أَرَأَيْتَ أُمُورًا كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ هَلْ لِي فِيهَا مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ» وَالتَّحَنُّثُ: التَّعَبُّدُ.

ومن العبادات التي كانوا يفعلونها الاعتكاف والنذر، ففي صحيح البخاري برقم (٢٠٤٣) عن ابن عمر: أَنَّ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَذَرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ أَنْ يَعْتَكِفَ فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ - قَالَ: أُرَاهُ قَالَ لَيْلَةً، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ».

ومن ذلك العتاقة وصلة الأرحام لما ورد في صحيح مسلم عن حيم بن حزام أنه قال لِرَسُولِ الله ﷺ: أَيْ رَسُولَ الله، أَرَأَيْتَ أُمُورًا كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، مِنْ صَدَقَةٍ، أَوْ عَتَاقَةٍ، أَوْ صِلَةِ رَحِمٍ، أَفِيهَا أَجْرٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ».

ومن ذلك الصَّوم ففي صحيح البخاري برقم (٣٨٣١) عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ يَوْمًا تَصُومُهُ قُرَيْشٌ، فِي الجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصُومُهُ، فَلَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ صَامَهُ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، فَلَمَّا نَزَلَ رَمَضَانُ كَانَ مَنْ شَاءَ صَامَهُ، وَمَنْ شَاءَ لاَ يَصُومُهُ».

ومن ذلك الصلاة وإن لم تكن كهيئتنا كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال (٣٥)].

ومن المعلوم بداهة أنَّ كفَّار قريش منهم عباد وزهاد كما أن منهم فسَّاقا وفجارا، والكلام الآن في المتدينين منهم، ولا يعترض علينا إذن ما ذكره خطيب الصحابة أمام النجاشي الصالح، لأنا نقول ذاك في فساقهم، مع أن فيه بعض الأشياء المشتركة كعبادة الأوثان، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

(٣) قال المصنف في مختصر السيرة (ص/ ٢٣): "وكانت الجاهلية على ذلك، وفيهم بقايا من دين إبراهيم لم يتركوه كله. وأيضًا يظنون أن ما هم عليه، وأن ما أحدثه عمرو: بدعة حسنة. لا تغير دين إبراهيم."

مثل الحج والعمرة،[١] والصَّدقة على المَسَاكين، والإحسان إليهم،[٢] وغير ذلك.[٣]

---

(١) كما ورد في صحيح مسلم برقم (١١٨٥) عن ابن عباس قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيْلَكُمْ، قَدْ قَدْ» فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ.

وفي صحيح مسلم برقم (٣٠٢٨) عنه أيضا: قَالَ: "كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهِيَ عُرْيَانَةٌ، فَتَقُولُ: مَنْ يُعِيرُنِي تِطْوَافًا؟ تَجْعَلُهُ عَلَى فَرْجِهَا، وَتَقُولُ: الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ *** فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] "

(٢) دليله ما ورد في صحيح مسلم عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: "لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ".

(٣) ولكنهم كانوا يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله عز وجل، كما سيذكره المصنف رحمه الله تعالى، ولذلك ما تنفعهم تلك العبادات، لا صلاة ولا صيام ولا حج، لأنهم جعلوا وسائط بينهم وبين الله، ولأنه فقد في تلك العبادات شرط الإخلاص. قال ابن كثير: "لا يحصل لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي ظَنُّوا أَنَّهَا مَنْجَاةٌ لَهُمْ شَيْءٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا فَقَدَتِ الشَّرْطَ الشَّرْعِيَّ إِمَّا الْإِخْلَاصُ فِيهَا وَإِمَّا الْمُتَابَعَةُ لِشَرْعِ اللهِ. فَكُلُّ عَمَلٍ لَا يَكُونُ خَالِصًا وَعَلَى الشَّرِيعَةِ الْمَرْضِيَّةِ فَهُوَ بَاطِلٌ، فَأَعْمَالُ الْكُفَّارِ لَا تَخْلُو مِنْ وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ، وَقَدْ تَجْمَعُهُمَا مَعًا فَتَكُونُ أَبْعَدَ مِنَ الْقَبُولِ حِينَئِذٍ.". قال المصنف: " وكان أهل الجاهلية على ذلك، فيهم بقايا من دين إبراهيم، مثل تعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف بعرفة ومزدلفة، وإهداء البُدْن. وكانت نزار تقول في إهلالها: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك" فأنزل الله: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]."

شرح كشف الشبهات لابن حميد (ص/ ١٤) وتفسير ابن كثير (٦/ ٩٤) ومختصرة السيرة (ص/ ٧٤).

وأجلُّها عندهم الشِّرك،[١] فهو أجل ما يتقرَّبون به إلى الله عندهم،[٢] كما ذكر الله عنهم أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر:٣]،[٣]

---

(١) إن مادَّة (شرك) تفيد في اللغة أن يكون الشيء بين اثنين، لا ينفرد به أحدهما، يقال: شاركت فلانا في الشيء، إذا صرت شريكه، قال الله تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ [سورة طه:٣٢] أي: اجعل شريكي فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الزمر:٢٩].

واصطلاحا: الشِّرك عند أهل السنَّة هو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله، لقول الله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [سورة الشعراء:٩٨].

قال ابن القيم: "حقيقة الشرك هو التشبّه بالخالق والتشبيه للمخلوق به."

وهذه التسوية التي حصلت من المشركين إنما كانت في بعض الأشياء التي يستحقها الرب جلَّ وعلا، لا في جميعها، إذ لم يوجد أحد سوَّى بين الله وبين مخلوق في جميع الأشياء.

قال شيخ الإسلام: "وأصل الشِّرك أَن تعدل بالله تَعَالَى مخلوقاته فِي بعض مَا يسْتَحقّهُ وَحده؛ فَإِنَّهُ لم يعدل أحد بِاللَّه شَيْئا من الْمَخْلُوقَات فِي جَمِيع الْأُمُور، فَمن عبد غَيره أَو توكل عَلَيْهِ فَهُوَ مُشْرك بِهِ."

انظر الشرك في القديم والحديث (١/ ١٤١) وحاشية ابن قاسم على كتاب التَّوحيد (ص/ ١٥) الداء والدواء (ص/ ١٣٤) (ص/ ٢١٣) والاستقامة لابن تيمة (١/ ٣٤٤) والمدارج (١/ ٣٦٨) وفتح المجيد (ص/ ٦٤٩) والقول المفيد (٢/ ٩٨) وفتاوى ابن عثيمين (٢/ ٢٠٢) ومجموع ابن تيمية (١/ ٩٤).

(٢) أي: عبادتهم لغير الله عز وجل أجل ما يتقربون به إلى الله عز وجل، وذلك لأنهم كانوا يظنون أَنَّ مَنْ تَقَرَّبَ إلى الله بعبادة غيره أن ذلك يُقَرِّبُهُ إلى الله!! ويعتقدون أن ذلك يصح! وهذا غاية الجهل.

(٣) قال الطبري: "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ يَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَيَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، يَقُولُونَ لَهُمْ: مَا نَعْبُدُكُمْ أَيُّهَا الْآلِهَةُ إِلَّا لِتُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، قُرْبَةً وَمَنْزِلَةً، وَتَشْفَعُوا لَنَا عِنْدَهُ فِي حَاجَاتِنَا."

وقال ابن كثير: "وَهَذِهِ الشُّبْهَةُ هي التي اعتمدها المشركون قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ وَجَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ بِرَدِّهَا وَالنَّهْيِ عَنْهَا وَالدَّعْوَةِ إِلَى إِفْرَادِ الْعِبَادَةِ للَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ هَذَا شَيْءٌ =

﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس:١٨]. (١)

وقال: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الأعراف:٣٠]. (٢)

= اخْتَرَعَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ لَمْ يَأْذَنِ اللَّهُ فِيهِ وَلَا رَضِيَ بِهِ بَلْ أَبْغَضَهُ وَنَهَى عَنْهُ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النَّحْلِ: ٣٦] ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الْأَنْبِيَاءِ: ٢٥] وَأَخْبَرَ أن الملائكة التي في السموات من الملائكة الْمُقَرَّبِينَ وَغَيْرِهِمْ كُلَّهُمْ عَبِيدٌ خَاضِعُونَ للهِ لَا يَشْفَعُونَ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ لِمَنِ ارْتَضَى وَلَيْسُوا عِنْدَهُ كَالْأُمَرَاءِ عِنْدَ مُلُوكِهِمْ يُشَفَّعُونَ عِنْدَهُمْ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فِيمَا أَحَبَّهُ الْمُلُوكُ وَأَبْوْهُ ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ﴾ [النَّحْلِ: ٧٤] تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ علوا كبيرا". انظر تفسير الطبري (٢٠/ ١٥٦) وتفسير ابن كثير (٧/ ٧٥) ومدارج السالكين (١/ ٣٤٩).

(١) قال الطبري: "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَيَعْبُدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ وَصَفْتُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ صِفَتَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّهُمْ شَيْئًا وَلَا يَنْفَعُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَذَلِكَ هُوَ الْآلِهَةُ وَالْأَصْنَامُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا. ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] يَعْنِي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا رَجَاءَ شَفَاعَتِهَا عِنْدَ الله." انظر تفسير الطبري (١٢/ ١٤٢).

(٢) أي: أنصارا وأربابا مِنْ دُونِ اللهِ حيث أطاعوهم فيما أمروهم به من الكفر والمعاصي وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ أي: أنهم على هداية وحق فيما اعتقدوا. فحين انسلخوا من ولاية الرحمن، واستحبوا ولاية الشيطان، حصل لهم النصيب الوافر من الخذلان، ووكلوا إلى أنفسهم فخسروا أشد الخسران. ﴿وَ﴾ هم ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ لأنهم انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقا والحق باطلا.

قال العلامة الشنقيطي: "هَذِهِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَنْفَعُهُ ظَنُّهُ أَنَّهُ عَلَى هُدًى؛ لِأَنَّ الْأَدِلَّةَ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ لَمْ تَتْرُكْ فِي الْحَقِّ لَبْسًا وَلَا شُبْهَةً، وَلَكِنَّ الْكَافِرَ لِشِدَّةِ تَعَصُّبِهِ لِلْكُفْرِ لَا يَكَادُ يُفَكِّرُ فِي الْأَدِلَّةِ الَّتِي هِيَ كَالشَّمْسِ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ لَجَاجًا فِي الْبَاطِلِ، وَعِنَادًا، فَلِذَلِكَ كَانَ غَيْرَ مَعْذُورٍ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى.".

انظر تفسير القاسمي (٥/ ٣٦) وتفسير السعدي (ص/ ٢٨٦) وأضواء البيان (٢/ ١٣).

فأَوَّل ما أمره به الإنذار عنه،(١) قبل الإنذار عن الزِّنى والسِّرقة وغيرهما. (٢)

وعرفت أن منهم من تعلَّق على الأصنَام، ومنهم من تعلق على الملائكة، وعلى الأولياء من بني آدم.(٣)

---

(١) أي: عن الشرك، بل قبل الأمر بالتوحيد، وقدمه على الدعوة إلى التوحيد، لأن هذا هو المفهوم من كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وهو المفهوم من قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، (قُمْ فَأَنذِرْ) يعني أنذر عن الشرك، (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) معناه عظمه بالتوحيد، هو معنى لا إله إلا الله.

وذكر العلماء أن ثمَّ مناسبة هنا وهي أن الإنذار عن الشرك هذا فيه تخلية، والدعوة إلى التوحيد تحلية، ومن القواعد المقررة أن التَّخْلِيَة تسبق التَّحْلِيَة، ولهذا فالنهي عن الشرك والإنذار عن الشرك إخراج لكل ما يتعلق به القلب؛ لأنه قال: لا يتعلق القلب بأي أحد من هذه الآلهة، ثم إذا خلا القلب من التعلق بأحد، أمره بأن يتعلق بالله جل وعلا وحده دون ما سواه.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ»، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي اللهُ»، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ، قَالَ: «أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ».

انظر شرح ثلاثة الأصول لصالح آل الشيخ رحمه الله (ص/ ١٤٦).

(٢) كالظلم والعدوان وانتهاك الأعراض.

(٣) مراده أن الكفار كانوا متفرقين في عباداتهم، والنبي ﷺ لَمَّا نهى عن الشرك ما نهى عن طائفة معيَّنة، ولا عن معبود معيَّن، لأن الإسلام أنكر جميع المعبودات الباطلة، وكفَّر من عبدها، ولم يفرق بين من يعبد حجرا، أو شجرا، أو ملكا، أو شيطانا كما كانت تفعل ذلك الجاهلية، وبين من يعبد إنسانا من الأحياء، أو الأموات نبيا كان أو وليا كما يفعله الآن كثير من المسلمين.

قال شيخ الإسلام: "فَإِنَّ أَهْلَ الْمِلَلِ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ جَمِيعَهُمْ نَهَوْا عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَكَفَّرُوا مَنْ يَفْعَلُ =

ويقولون: ما نريد منهم إلا شفاعتهم. (١)

= ذَلِكَ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا حَتَّى يَتَبَرَّأَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَكُلِّ مَعْبُودٍ سِوَى اللهِ".

والتعلق بغير الله هو التفات القلب عن الله إلى شيء يعتقد فيه أنه ينفعه أو يدفع عنه، ويكون بالقلب، وينشأ عنه الأقوال والأفعال، وهو على ثلاثة أقسام:

الأول: ما ينافي التوحيد من أصله، وهو أن يتعلق بشيء لا يمكن أن يكون له تأثير، ويعتمد عليه اعتمادا معرضا عن الله، مثل تعلق عباد القبور بمن فيها عند حلول المصائب، ولهذا إذا مستهم الضراء الشديدة يقولون: يا فلان! أنقذنا، فهذا لا شك أنه شرك أكبر مخرج من الملة، وهذا هو مراد المصنف.

الثاني: ما ينافي كمال التوحيد، وهو أن يعتمد على سبب شرعي صحيح مع الغفلة عن المسبب، وهو الله عز وجل وعدم صرف قلبه إليه؛ فهذا نوع من الشرك، ولا نقول شرك أكبر؛ لأن هذا السبب جعله الله سببا.

الثالث: أن يتعلق بالسبب تعلقا مجردا لكونه سببا فقط، مع اعتماده الأصلي على الله؛ فيعتقد أن هذا السبب من الله، وأن الله لو شاء لأبطل أثره، ولو شاء لأبقاه، وأنه لا أثر للسبب إلا بمشيئة الله عزوجل؛ فهذا لا ينافي التوحيد لا كمالا ولا أصلا، وعلى هذا لا إثم فيه.

قال الشيخ عبد اللطيف في البراهين الإسلاميَّة (ص/ ١١١): "ومتى بقي في قلب العبد ملاحظة واستعانة بالوسائط فهو على درجتين إما أن يلاحظ ما جرت به الأسباب العادية مما هو في طاقة الخلق وقدرتهم فالاعتماد على هذا والتعلق به ينقص الإيمان الكامل وتنحط به درجة العبد لكن لا يخرج به عن الإسلام إذا كان أصل اعتماده وتوكله على الله لا على غيره.

وأما ملاحظة السوي والوسائط في غير الأسباب العادية كالذين يلاحظون أرواح الأنبياء والأولياء ويرجونهم ويستمدون منهم هذا هو الشرك الأكبر الذي لا يجامع أصل الإيمان ولا يطابق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والبراءة من هذا ونفيه هو الصراط المستقيم الموصل إلى الله وإلى جنته ومرضاته."

انظر مجموع الفتاوى (٢/ ١٢٨) وقرة عيون الموحدين (ص/ ٦٠) والتعريفات الاعتقاديَّة (ص/ ١١١) والقول المفيد للعلامة ابن عثيمين (١/ ١٨٢).

(١) أي: أن المشركين كانوا يريدون بهذا التعلق الكفري الشفاعة، فهم إنما عبدوهم ليشفعوا لهم عند الله في أمورهم وحاجاتهم التي يحتاجونها في الدنيا، أو في الآخرة إن أمكن حصولها. =

ومع هذا بدأ بالإنذار عنه(١) في أَوَّلِ آية أرسله الله بها.(٢)

= قال ابن القيم رحمه الله: "والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشِّرك، وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه، ورضي قوله وعمله، وهم أهل التوحيد، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء".

وقال أيضا: "فالآلهة التي تعبد من دون الله أحقر وأذل من أن تشفع عند الله، وهي محضرة في الهوان والعذاب مع عابديها، وأقرب الخلق إلى الله وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلا من بعد إذنه لمن ارتضاه، فالشفاعة بإذنه من نعمة فهو المنعم بالشفاعة وهو المنعم بقبولها وهو المنعم بتأهيل المشفوع له؛ إذ ليس كل أحد أهلا أن يشفع له فمن المنعم على الحقيقة سواه."

يقول الرازي في تفسيره (١٧/ ٢٢٧): "إِنَّهُمْ وَضَعُوا هَذِهِ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ عَلَى صُوَرِ أَنْبِيَائِهِمْ وَأَكَابِرِهِمْ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ مَتَى اشْتَغَلُوا بِعِبَادَةِ هَذِهِ التَّمَاثِيلِ، فَإِنَّ أُولَئِكَ الْأَكَابِرَ تَكُونُ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَظِيرُهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ اشْتِغَالُ كَثِيرٍ مِنَ الْخَلْقِ بِتَعْظِيمِ قُبُورِ الْأَكَابِرِ، عَلَى اعْتِقَادِ أَنَّهُمْ إِذَا عَظَّمُوا قُبُورَهُمْ فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ." انظر مدارج السالكين (١/ ٣٤٩) وشفاء العليل (ص/ ٣٧).

(١) أي: الشرك وعن هذا التعلق بعينه.

(٢) وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ} [المدثر: ١-٢].

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن: "هذا بعينه هو قصد المشركين ومرادهم، وهو الذي دعاهم إلى عبادة الأنبياء والصالحين والتعلق عليهم لأجل الجاه والشفاعة.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] [يونس: ١٨].

وأخبر تعالى عن قصدهم ومقالتهم، وأنكرها عليهم، وأخبر أنه لا يعلم وجود شفيع يشفع عنده لا في السماوات ولا في الأرض، وما لا يعلمه فهو مستحيل الوجود، فنزه نفسه عن هذا الشرك المنافي للعبودية التي هي الحكمة في إيجاد البرية". انظر مصباح الظلام (ص/ ٢٨١-٢٨٣).

فإن أحكمت[١] هذه المسألة،[٢] فيا بشراك.![٣]

خصوصًا[٤] إذا عرفت أن ما بعدها أعظم من الصَّلوات الخَمس،[٥]

---

(١) أي: أتقنت إتقانا جيِّدا لا تردّد فيه.

(٢) وهي أنَّ أول ما يؤمر به التوحيد، وأول ما ينهى عنه الشرك، لأنه لا فائدة في صلاح باقي الأمور مع فساد العقيدة. شرح ستة مواضع من السيرة للعلامة الفوزان (ص/ ٦٤) سلسلة شرح الرَّسائل.

(٣) كَلِمَةٌ تُذْكَرُ عِنْدَ الْبِشَارَةِ وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُمْ: يَا عَجَبًا مِنْ كَذَا، ومعناه يَا أَيَّتُهَا الْبُشْرَى احضري هَذَا الْوَقْتُ وَقْتُكِ، وَلَوْ كُنْتَ مِمَّنْ يُخَاطَبُ لَخُوطِبْتَ الْآنَ وَلَأُمِرْتَ بِالْحُضُورِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ سَبَبَ الْبِشَارَةِ هُوَ أنك فهمت مسألة لم يفهمها الكثيرون، ممن يدَّعي العلم وغيرهم، خصوصا إن تدبَّرت ما في القرآن من بيان ما جرى من الأمم المكذبة للرسل، وما جرى في هذه الأمة مما أخبر النبي ﷺ بوقوعه، من الشرك والضلال، وما جرى على النبي ﷺ في ابتداء دعوته.

فيا لها نعمة ما أجلها لمن عرف قدرها، ورعاها حق رعايتها، وأحبها وسر بها، ولزم العمل بها وذكرها. ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. انظر تفسير الرازي (١٨/ ٤٣٢). والدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٢/ ٣١٤)

(٤) يسْتَعْمل بِمَعْنى (لَا سِيمَا) تَقول: يُعجبني فلَان خُصُوصا علمه وأدبه. المعجم الوسيط.

(٥) (ما) نافية أي: أنه ليس بعدها من أمور الدين أعظم من الصلوات الخمس، لأنها الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، ففي الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ». وفي حديث معاذ، عنِ النَّبيِّ ﷺ: (رأسُ الأمر الإسلام، وعمودُه الصَّلاةُ) فجعل الصلاة كعمود الفسطاط الذي لا يقوم الفسطاطُ ولا يثبتُ إلا به، ولو سقط العمودُ، لسقط الفسطاط، ولم يثبت بدونه. انظر جامع العلوم والحكم (١/ ١٤٩).

ولم تفرض إلا في ليلة الإسراء،(١) سنة عشر،(٢) بعد حصار الشّعب(٣)

---

(١) أي: لم تفرض الصلوات الخمس إلا في ليلة الإسراء والمعراج، وقصة الإسراء والمعراج رواه البخاري برقم (٣٨٨٧) ومسلم برقم (١٦٤) عن أنس بن مالك عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وهي قصة طويلة مشهورة معروفة، ولكن الشاهد منها أنها كانت متأخرة جدا عن زمن بدء النبوَّة.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم: "فقد كان خير الخلق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في أَول بعثته ومبدأ دعوته يبدأُ بالأَهم فالأَهم، وأَقام صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنوات من بعثته قبل فرض الصلاة التي هي عمود الإسلام وما بعدها من الأركان كل ذلك في بيان التوحيد والدعوة إليه، وبيان الشرك وتهجينه والتحذير منه". انظر فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم (١/ ٨٦).

(٢) أي: قبل الهجرة بثلاثة أعوام، واختلفوا في السنة التي أسري النبي ﷺ إلى بيت المقدس، فقيل: قبل الهجرة بسنة، وهو قول عروة والزهري، وقيل: بستة عشر شهرا وهو قول السدي، وقيل: بسنة وشهرين، ذكره ابن عبد البرّ، ومنهم من ادَّعى أن الإسراء كان أكثر من مرَّة، وهو قول ضعيف.

قال ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٣٨): "وَيَا عَجَبًا لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُ مِرَارًا، كَيْفَ سَاغَ لَهُمْ أَنْ يَظُنُّوا أَنَّهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ تُفْرَضُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ خَمْسِينَ، ثُمَّ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ رَبِّهِ وَبَيْنَ مُوسَى حَتَّى تَصِيرَ خَمْسًا، ثُمَّ يَقُولُ: «أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»، ثُمَّ يُعِيدُهَا فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ إِلَى خَمْسِينَ، ثُمَّ يَحُطُّهَا عَشْرًا عَشْرًا"

وقال ابن كثير في تفسيره (٥/ ٣): " وَمَنْ جَعَلَ مِنَ النَّاسِ كُلَّ رِوَايَةٍ خَالَفَتِ الْأُخْرَى مُرَّةً عَلَى حِدَةٍ، فَأَثْبَتَ إِسْرَاءَاتٍ مُتَعَدِّدَةً فَقَدْ أَبْعَدَ وَأَغْرَبَ، وَهَرَبَ إِلَى غَيْرِ مَهْرَبٍ، ولم يتحصل عَلَى مَطْلَبٍ."

(٣) أي: لما أجمعت قريش على أن يتعاقدوا على بنى هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف: ألا يبايعونهم، ولا يناكحوهم، ولا يكلموهم، ولا يجالسوهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في سقف الكعبة، وانحاز إلى شعب بنو هاشم وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم إلا أبا لهب لعنه الله فإنه ظاهر قريشًا. وبقوا على تلك الحال لا يدخل (عليهم أحد نحوًا من ثلاث سنين. وهناك عمل أبو طالب قصيد ته المشهورة: جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا. وكان هذا في السنة السابعة من البعثة، الفصول في سيرة الرسول لابن كثير (ص/ ٤٣) والخلاصة البهية في ترتيب أحداث السيرة النبوية (ص/ ٢٣).

وموت أبي طالب،[١] وبعد هجرة الحبشة بسنتين.[٢]

فإذا عرفت أن تلك الأمور الكثيرة،[٣] والعداوة البالغة،[٤] كل ذلك عند هذه المسألة،[٥] قبل فرض الصَّلاة، رَجوتَ أن تعرف المسألة.[٦]

---

(١) أي: عم رسول الله ﷺ، وكان موته في السنة العاشرة من البعثة، ثم ماتت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعده بثلاثة أيام، فحزن رسول الله ﷺ لموتهما حزنا شديدا، ونالت قريش منه ﷺ ما لم تنله في حياة عمه أبي طالب. وروي عن عائشة بسند جيد عند الألباني عن النبي ﷺ قال: (ما زالت قريش كاعة حتى توفي أبو طالب).
انظر صحيح السيرة النبوية للألباني (ص/ ٣١) والخلاصة البهية في السيرة (ص/ ٢٤).

(٢) وكانت في السنة الخامسة من البعثة وهاجر جماعة من الصحابة إلى الحبشة - بإذن رسول الله ﷺ - حفاظا على دينهم، منهم: عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وجعفر بن أبي طالب، وأم سلمة.
وقد روى الإمام أحمد في مسنده حديث أم سلمة ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ في قصة الهجرة، وما لاقوه من النجاشي من الإكرام، ومن قريش من الأذى، والحديث صحيح مشهور، وهو في الصحيح المسند للعلامة الوادعي رحمه الله. الخلاصة البهية في ترتيب أحداث السيرة النبوية (ص/ ٢٣).

(٣) التي حصلت للنبي ﷺ وأصحابه في مكة من أذى وحصار ومضايقة وقتل بعض أصحابه كأبوي عمار وغير ذلك.

(٤) من قريش للنبي ﷺ وأصحابه.

(٥) يعني مسألة التَّحذير من الشرك والأمر بالتوحيد، فهذه هي المعركة الكبرى.

(٦) أي: أهميَّة هذه المسألة، وأنها أول الدين وآخره، وأسه وأساسه، حتى صار القرآن كله حديث عن التَّوحيد، يقول ابن القيم: "وَجُمْلَةِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَغَالِبِ سُوَرِ الْقُرْآنِ، بَلْ كُلُّ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِنَوْعَيِ التَّوْحِيدِ، بَلْ نَقُولُ قَوْلًا كُلِّيًّا: إِنَّ كُلَّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلتَّوْحِيدِ، شَاهِدَةٌ بِهِ، دَاعِيَةٌ إِلَيْهِ".
وقال الشيخ محمد بن إبراهيم: "وكان ﷺ يسلك في الإنذار عن الشرك والدعوة إلى التوحيد شتى الطرق ويسعى في حثه الناس لإبلاغهم ذلك بكل ما يمكنه حتى إنه مرة صعد على الصَّفا ﷺ رافعًا صوته =

❁ ❁ ❁

= واصباحاه. فلما اجتمعوا إليه قال: يا أَيها الناس إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فحقيق بالمسلمين ولا سيما العلماء كبير عنايتهم ومزيد اهتمامهم بمعرفة حقيقة ما بعث الله به الرسل من أَولهم إلى آخرهم وخاتمهم محمد رسول الله ﷺ وعليهم أَجمعين وتعليمهم ذلك، والعمل به ظاهرًا وباطنًا، والموالاة والمحبة والتناصح فيه، والتواصي به: من توحيد الله تبارك وتعالى في ربوبيته وفي ذاته تبارك وتعالى، وأَسمائه وصفاته وأَفعاله، وفي إلهيته وما يستحق من عبادته وحده لا شريك له ".

وقال أيضا في بدائع الفوائد (٣/ ١٤): "وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسول الله هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود والدعوة له لا لغيره، والطاعة والأتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة، فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه وبالأمر بتوحيده ونهي عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله.

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله وكل شر في العالم وفتنة وبلا وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله.

ومن تدبر هذا حق التدبر وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي حق غيره عموما وخصوصا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم."

انظر فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم (١/ ٨٦) ومدارج السالكين (٣/ ٤١٧).

المَوضِع الثَّانِي: [المَرحَلَةُ الأُولى لِلدَّعوَةِ] (١)

أنه ﷺ لما قام ينذرهم(٢) عن الشرك، ويأمرهم بضدِّه، وهو التوحيد،(٣)

---

(١) لعلَّ مراد المصنِّف من ذكر هذا الموضع بيان وجوب الكفر بالطاغوت ووجوب البراءة من المشركين وتصريح عدواتهم، وفي هذا إشارة إلى مسألة الولاء والبراء وأهميتها.

يقول الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [سورة البقرة:٢٥٦].

وصفة الكفر بالطاغوت أن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتتركها، وتبغضها، وتكفر أهلها، وتعاديهم، وأما معنى الإيمان بالله فأن تعتقد، أن الله هو الإله المعبود وحده، دون من سواه، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم.

والمصنِّف يبيِّن هنا أنه لا يستقيم دين عبد إلا إذا كفر بالطاغوت، ومن ذلك التصريح بعداوة المشركين والبغض لهم، وذلك لأنه ما حصل بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين بني أعمامه تلك العداوة البالغة إلا لمَّا صرَّح عداوتهم وأنهم على باطل، وأن آلتهم لا تنفع ولا تضر.

يقول المصنف: "فلما أنذر صلى الله عليه وسلم الناس، استجاب له القليل. وأما الأكثر: فلم يتبعوا ولم ينكروا، حتى بادأهم بالتنفير عن دينهم وبيان نقائصه وعيب آلهتهم. فاشتدت عداوتهم له ولمن تبعه. وعذبوهم عذابًا شديدًا، وأرادوا أن يفتنوهم عن دينهم. فمن فهم هذا عرف أن الإسلام لا يستقيم إلا بالعداوة لمن تركه وعيب دينه، وإلا لو كان لأولئك المعذَّبين رخصة لفعلوا، وجرى بينه وبينهم ما يطول وصفه. وقص الله سبحانه بعضه في كتابه." انظر الدرر السنية (١/ ١٦١) ومختصر السيرة (ص/ ٣٤).

(٢) أي: أي: ينذر كفار قريش.

(٣) لأن هذه أوَّل دعوته صلى الله عليه وسلم كما تقدم في الموضع الأوَّل، فإنه بدأ بالأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، لأن هذا هو معنى (لا إله إلا الله).

يقول ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٢١١): "فَلَا صَلَاحَ لِلْقُلُوبِ حَتَّى يَسْتَقِرَّ فِيهَا مَعْرِفَةُ اللهَّ وَعَظَمَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ وَخَشْيَتُهُ وَمَهَابَتُهُ وَرَجَاؤُهُ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَتَمْتَلِئَ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فَلَا صَلَاحَ لِلْقُلُوبِ حَتَّى يَكُونَ إِلٰهُهَا الَّذِي تَأْلَهُهُ وَتَعْرِفُهُ وَتُحِبُّهُ وَتَخْشَاهُ هُوَ اللهَّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَوْ كَانَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَهٌ يُؤَلَّهُ سِوَى اللهَّ، لَفَسَدَتْ بِذَلِكَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، =

لم يكرهوا ذلك واستحسنوه،(١) وحدَّثُوا أنفسَهم بالدُّخول فيه،(٢)

= كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]".

(١) كأنَّ مراد المصنِّف أن قريشا ما أنكرت عليهم ولا تكف عمن يريد دين محمد ﷺ، وإلا كانوا يكرهون هذا الدين ويستهزئون بأهله، فكيف يستحسنونه مع السخرية بأهله.

وقد صرَّح المصنف مراده في مختصر السيرة (ص/ ٣٤) حيث قال: "فلم يتَّبعوا ولم ينكروا".

وإنما لم ينكروا في أول الأمر لأنهم كانوا يفسرون الذي هم عليه أنه ليس بشرك، أو أن هذا رأي لمحمد وأصحابه وسيندثر، كما كان يرى هذا من كان على دين إبراهيم وماتوا، أي: احترام الآراء، وهذا الذي يدندن عليه أهل الكفر اليوم دعونا نتعايش، ولا تقولوا شيئا في ديننا، ونحن لا نقول شيئا في دينكم، مع أنهم هم الذين يحاربون الإسلام على أقصى ما يمكن، ويقتلون المسلمين ويشردونهم، حتى قال بعض الأفاضل: قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر *** وقتل شعب كامل مسألة فيها نظر.

انظر سلسلة شرح الرسائل للعلامة الفوزان (ص/ ٦٧).

(٢) لو لم يكن فيه سبٌّ لآلهتهم، وكأنه يشير إلى ما رواه أحمد في مسنده الطبري في تفسيره (٢٠/ ٢٠) وغيرهما عن ابن عباس قال: لَمَّا مَرِضَ أَبُو طَالِبٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ فِيهِمْ أَبُو جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ فَقَالُوا: إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ يَشْتِمُ آلِهَتَنَا، وَيَفْعَلُ وَيَفْعَلُ، وَيَقُولُ وَيَقُولُ، فَلَوْ بَعَثْتَ إِلَيْهِ فَنَهَيْتَهُ؛ فَبَعَثَ إِلَيْهِ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ الْبَيْتَ، وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَبِي طَالِبٍ قَدْرُ مَجْلِسِ رَجُلٍ، قَالَ: فَخَشِيَ أَبُو جَهْلٍ إِنْ جَلَسَ إِلَى جَنْبِ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يَكُونَ أَرَقَّ لَهُ عَلَيْهِ، فَوَثَبَ فَجَلَسَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، وَلَمْ يَجِدْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَجْلِسًا قُرْبَ عَمِّهِ، فَجَلَسَ عِنْدَ الْبَابِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو طَالِبٍ: أَيِ ابْنَ أَخِي، مَا بَالُ قَوْمِكَ يَشْكُونَكَ؟ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ تَشْتُمُ آلِهَتَهُمْ، وَتَقُولُ وَتَقُولُ؛ قَالَ: فَأَكْثَرُوا عَلَيْهِ الْقَوْلَ.

وَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا عَمِّ إِنِّي أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يَقُولُونَهَا، تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ»، فَفَزِعُوا لِكَلِمَتِهِ وَلِقَوْلِهِ، فَقَالَ الْقَوْمُ: كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ؟ نَعَمْ وَأَبِيكَ عَشْرًا؛ فَقَالُوا: وَمَا هِيَ؟ فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَأَيُّ كَلِمَةٍ هِيَ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ قَالَ: فَقَامُوا فَزِعِينَ يَنْفُضُونَ ثِيَابَهُمْ، وَهُمْ يَقُولُونَ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾. والحديث ضعيف، فيه يحيى بن عمارة، ويقال: عباد. وهو مجهول وتفرد عنه الأعمش. انظر مسند أحمد ط: الرسالة. (٣/ ٢٥٨).

إلى أن صرَّح بسبِّ دينهم،[١] وتجهيل علمائهم،[٢] فحينئذٍ شمَّروا له[٣] ولأصحابه عن ساق العداوة. [٤] وقالوا:[٥] سفَّه أحلامنا،[٦] وعاب ديننا،[٧] وشتم آلهتنا.[٨]

---

(١) أي: صرَّح النبيُّ ﷺ بسبِّ دينهم، أي: بيان نقائصه وعيب آلهتهم، وذلك بقراءة القرآن الذي أنزل عليه، وفيه بيان أن آلهتهم لا تنفع ولا تضر، وهذا هو السب عندهم كما سيأتي. مختصر السيرة (ص/ ٣٤).

(٢) وذلك ببيانه أن العاقل لا ينبغي له أن يعبد شيئا لا ينفعه ولا يضره، ومن عبده فهو جاهل غبي، وسمَّى أبا الحكم أبا الجهل، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

قال السعدي في تفسيره (ص/ ٤٦٠): "ومن العجب أن السفه عند الاعتياد والممارسة وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول يراه صاحبه هو الرأي: السديد والعقل المفيد. ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة هو السفه والأمر المتعجب منه كما قال المشركون: ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب﴾."

(٣) أي: تهيَّأوا وجدّوا للعداوة، يقال: شمرت عَن سَاقهَا: اشتدت. المعجم الوسيط.

(٤) قال ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ١٩): "وَدَخَلَ النَّاسُ فِي الدِّينِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، وَقُرَيْشٌ لَا تُنْكِرُ ذَلِكَ، حَتَّى بَادَأَهُمْ بِعَيْبِ دِينِهِمْ وَسَبِّ آلِهَتِهِمْ، وَأَنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، فَحِينَئِذٍ شَمَّرُوا لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ عَنْ سَاقِ الْعَدَاوَةِ، فَحَمَى اللهُ رَسُولَهُ بِعَمِّهِ أبي طالب؛ لِأَنَّهُ كَانَ شَرِيفًا مُعَظَّمًا فِي قُرَيْشٍ مُطَاعًا فِي أَهْلِهِ، وَأَهْلُ مَكَّةَ لَا يَتَجَاسَرُونَ عَلَى مُكَاشَفَتِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَذَى."

(٥) أي: كفار قريش، وتقدم الحديث في ذلك، وفي تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٩٨) وغيره أنهم قالوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ، سَفَّهَ أَحْلَامَنَا وَشَتَمَ آبَاءَنَا وَعَابَ دِينَنَا وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا وَسَبَّ آلِهَتَنَا لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، أَوْ كَمَا قَالُوا".

(٦) أَي نسب عقولنا إِلَى السَّفه، وَهُوَ خفَّة الْعقل، يُقَال: ثوب سَفِيه: إِذا كَانَ رَقِيقا بَالِيًا. كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (٤/ ١١٨).

(٧) بأنها ديانة باطلة غير صحيحة.

(٨) بأنهم لَا يضرون ولا ينفعون، وأنها أحجار لَا تضر ولا تنفع، وليس في هذا سب ولا شتم، وإنما فيه ذكر الحقائق الثابتة التي لا مجال للريب فيها. والمشركون عدوا ذلك سبًّا.

ومعلوم أنه ﷺ لم يشتم عيسى وأمه،(١) ولا الملائكة،(٢) ولا الصالحين،(٣) لكن لما ذكر أنهم لا يُدعون،(٤) ولا ينفعون ولا يضرون،(٥) جعلوا ذلك شتمًا.(٦)

---

(١) مريم عليها السلام التي وصفها الله بالصديقة، وقد عبدا من دون الله، كما أشار الله إلى ذلك بقوله: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المائدة (١١٧)].

(٢) جمع ملك، مأخوذ من الألوكة وهي الرسالة، والملائكة عالم غيبي خلقهم الله من نور، ولهم أعمال مختلفة، ومراتب متعددة، انظر المجموع (١/ ١٥٧).

(٣) جمع صالح، وَهُوَ كُلُّ مَنْ صَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ وَعَلَانِيَتُهُ. تفسير ابن جرير الطبري (٧/ ٢١١).

(٤) أي: لا يجوز دعاؤهم.

(٥) لا يستطيعون جلب المنفعة ولا دفع المضرة وكذا العكس.

(٦) أي: لما قال لهم: إن عيسى بشر لا ينفع ولا يضر، وإن الملائكة لا تنفع ولا تضر، وإن الصالحين لا ينفعون ولا يضرون عدُّوا ذلك تنقيصا وشتما، وذلك لأنهم يرون أن النهي عن دعاء الأنبياء والصالحين، والقول بأنهم لا يقصدون ولا يُدْعون للشفاعة ولا لغيرها من المطالب: تنقص لهم وإبطال لفضلهم وكرامتهم؛ وذلك لظنهم أن الفضل والكرامة في قصدهم ودعائهم والتعلق عليهم، وكونهم مفزعا وملجًا عند الشدائد والمهمات.

قال شيخ الإسلام: "ومَن نُهِيَ عن اتخاذ الأحبارِ والرُّهبانِ أربابًا من دونِ الله والمسيح ابن مريم، وعن اتخاذ الملائكةِ والنبيين أربَابًا، وعن الغُلُوِّ في الأنبياء والصالحين، فزَعمَ أنَّ هذا تنقُّصٌ واستخفافٌ بالأنبياء والصالحين والملائكة، فهو من جنس النصارى وأشباهِهم من المشركين وأهلِ البدع".

وقال ابن القيم: "لم تكن حجتهم إلا أن قالوا، كما قال إخوانهم: عاب آلهتنا، فقال هؤلاء: تنقصتم مشايخنا، وأبواب حوائجنا إلى الله، وهكذا قال النصارى للنبي ﷺ، لما قال لهم: إن المسيح عبد الله، قالوا: تنقصت المسيح وعبته، وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثانا تعبد، ومساجد تقصد، وأمر =

فإذا عرفت هذه المسألة،(١) عرفت أن الإنسان لا يستقيم له دين ولا إسلام،(٢) ولو وحد الله وترك الشِّرك، إلا بعداوة المشركين،(٣) والتَّصريح لهم بالعداوة

= بزيارتها على الوجه الذي أذن الله فيه ورسوله، قالوا: تنقصت أصحابها. فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم، حتى كأنهم قد تواصوا به ﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا﴾ [الكهف: ١٧] ".
انظر مصباح الظلام للشيخ عبد اللطيف (ص/ ٣٥٤) ومجموع الفتاوى (٧/ ٥٧) وجامع المسائل (٥/ ١٠٦) والعقود الدرية (ص/ ٢٨٣) والمدارج (١/ ٣٥٠).

(١) وهي: أنهم ما قاموا عليه إلا بعد سبِّ آلهتهم على المعنى الذي تقدَّم.

(٢) أي: لا يصح له دين الإسلام إذا لم يصرح بأن آلهتهم لا تنفع ولا تضر وأنهم لا يدعون ولا يستغاث بهم، ولم يعتقده ولم يدين به، لا يستقيم له إسلام، وهذا هو الحق؛ لأن من أركان الشهادة الكفر بالطاغوت، وذلك لا يتأتى إلا بعداوة المشركين وسب آلهتهم، فهو من مدلول كلمة الإخلاص؛ وهو حقيقة التوحيد، فلو وحَّد الله بعبادته ولم يشرك به، لكنه لم يأتِ بهذا ولم يعتقده، لم ينتفع بتوحيده وعدم شركه، وهذا حق لا شك فيه، والآيات تدل عليه، وتشهد له، وهذا المعنى دلَّت عليه كلمة الإخلاص تضمنًا.
قال الشيخ عبد الله بن الإمام: "الإسلام لا يستقيم إلا بمعاداة أهل هذا الشرك، فإن لم يعادهم، فهو منهم، وإن لم يفعله، والله أعلم.". انظر مصباح الظلام (ص/ ٧٠) والدرر السنية (١/ ٤٣٢).

(٣) أي: إلا بالولاء والبراء كما قال إبراهيم عليه السلام: {إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ} [الممتحنة (٤)].
قال المصنف: "وأنت يا من مَنَّ الله عليه بالإسلام، وعرف أن ما من إله إلا الله، لا تظن أنك إذا قلت: هذا هو الحق، وأنا تارك ما سواه، لكن لا أتعرض للمشركين، ولا أقول فيهم شيئا، لا تظن أن ذلك يحصل لك به الدخول في الإسلام، بل لا بد من بغضهم، وبغض من يحبهم، ومسبتهم، ومعاداتهم، كما قال أبوك إبراهيم، والذين معه: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [سورة الممتحنة آية: ٤] ، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ الآية [سورة البقرة آية: ٢٥٦] ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [سورة النحل آية: ٣٦] .". الدرر السنية (٢/ ١٠٩).

والبغض،[١] كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [سورة المجادلة:٢٢] الآية.[٢]

فإذا فهمت هذا[٣] فهمًا حسنًا جيِّدًا،[٤] عرفت أن كثيرًا من الذين[٥] يدّعون الدين لا يعرفونها.[٦]

---

(١) من البغض، وهو نفور النفس عن الشيء وعدم إرادتها، ويكون من القلب، وأما المعادة فالظاهر أنه يكون في الظاهر، والفرق بَين الْعَدَاوَة والبغضة أَن الْعَدَاوَة البعاد من حَال النُّصْرَة ونقيضها الْوَلَايَة وَهِي الْهَرَب من حَال النُّصْرَة والبغضة إِرَادَة الاستحقار والاهانة ونقيضها الْمحبَّة وَهُوَ ارادة الإعظام والإجلال.

والتصريح لهم بالعداوة معناه ذكر آلهتهم بأنهم لا يُدعون ولا ينفعون ولا يضرون.

قال الشيخ عبد اللطيف: "والمرء قد يكره الشرك، ويحب التوحيد، لكن يأتيه الخلل من جهة عدم البراءة من أهل الشرك، وترك موالاة أهل التوحيد ونصرتهم؛ فيكون متبعًا لهواه، داخلًا من الشرك في شعب تهدم دينه وما بناه، تاركًا من التوحيد أصولًا وشعبًا، لا يستقيم معها إيمانه الذي ارتضاه، فلا يحب ولا يبغض لله، ولا يعادي ولا يوالي لجلال من أنشأه وسواه؛ وكل هذا يؤخذ من شهادة أن لا إله إلا الله.".

انظر الفروق للعسكري (ص/ ١٣١) ومصباح الظلام (ص/ ٧٠) والدرر السنية (٨/ ٣٩٦).

(٢) قال شيخ الإسلام: "فَأَخْبَرَ أَنَّك لَا تَجِدُ مُؤْمِنًا يُوَادُّ الْمُحَادِّينَ للهَّ وَرَسُولِهِ فَإِنَّ نَفْسَ الْإِيمَانِ يُنَافِي مُوَادَّتَهُ كَمَا يَنْفِي أَحَدُ الضِّدَّيْنِ الْآخَرَ فَإِذَا وُجِدَ الْإِيمَانُ انْتَفَى ضِدُّهُ وَهُوَ مُوَالَاةُ أَعْدَاءِ اللهَّ فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ يُوَالِي أَعْدَاءَ اللهَّ بِقَلْبِهِ؛ كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ قَلْبَهُ لَيْسَ فِيهِ الْإِيمَانُ الْوَاجِبُ.". مجموع الفتاوى (٧/ ١٧).

(٣) أي: هذا الموضع الثاني.

(٤) في نسخة: فهما حسنا. كما في مؤلفات الشيخ ابن عبد الوهاب (١/ ٣٥٥).

(٥) كالصوفية والثقافيين وغيرهم كثير.

(٦) قال العلامة الفوزان: "وهذا صحيح، فإنك لو سألت كثيرا من العلماء والمتعلمين عن هذه المسألة –مسألة الولاء والبراء– تجدهم لا يعرفونها، يقولون: لا يلزم بغضهم، ديننا ما هو دين عداوة، ديننا دين مودة ودين مصالحة ودين كذا، يعتبرون هذا من مدح الدين." سلسلة شرح الرسائل (ص/ ٧١).

وإلَّا[١] فما الَّذي حمل المسلمين[٢] على الصَّبر على ذلك العذاب، والأسر والضرب، والهجرة إلى الحبشة.[٣]

مع أنه ﷺ أرحم الناس،[٤] [ولم يجد لهم رخصة]،[٥] ولو وجد لهم رخصة لأرخص لهم.[٦]

---

(١) أي: وإن لم يكن الأمر كذلك.

(٢) أي: الصحابة.

(٣) أي: ما هو سبب ما نال المسلمون في مكة؟، ليس لأجل الصلاة ولا الصيام، بل هو أنهم أبغضوا الكفار وعادوهم ونهوا عن الشرك بالله جَلَّوَعَلَا وقاموا ببيان باطلهم، ولو وحدوا الله وصلوا وصاموا ولم يتعرضوا لأحد ما حصل لهم أذى لا بالضرب ولا الحبس ولا الأسر ولا غير ذلك حتى اضطروا إلى الهجرة من بلدانهم، ودليل ذلك أنه كان منهم من يوحدوا الله وهو على دين إبراهيم ولم يتعرضوا له بشيء فيما نعلم.
قال ابن القيم في الزاد (٣/ ٢٠): "وَأَمَّا أَصْحَابُهُ، فَمَنْ كَانَ لَهُ عَشِيرَةٌ تَحْمِيهِ امْتَنَعَ بِعَشِيرَتِهِ، وَسَائِرُهُمْ تَصَدَّوْا لَهُ بِالْأَذَى وَالْعَذَابِ، مِنْهُمْ: عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَأُمُّهُ سمية، وَأَهْلُ بَيْتِهِ عُذِّبُوا فِي اللَّهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا مَرَّ بِهِمْ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ يَقُولُ: «صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ». وَمِنْهُمْ: بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ، فَإِنَّهُ عُذِّبَ فِي اللَّهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ، فَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ، وَكَانَ كُلَّمَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ، فَيَمُرُّ بِهِ ورقة بن نوفل فَيَقُولُ: إِي وَاللَّهِ يَا بلال، أَحَدٌ أَحَدٌ، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُ لَأَتَّخِذَنَّهُ حَنَانًا."
قال ابن القيم في الهدي (١/ ٨٤): "فَأَعْلَنَ ﷺ بِالدَّعْوَةِ وَجَاهَرَ قَوْمَهُ بِالْعَدَاوَةِ، وَاشْتَدَّ الْأَذَى عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ لَهُمْ بِالْهِجْرَتَيْنِ." انظر سلسلة شرح الرسائل (ص/ ٧٢).

(٤) لقول الله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة (١٢٨)].

(٥) في مداهنة الكفار ومجاراتهم ومجاملتهم، وعدم الكلام في دينهم.

(٦) أي: لو كان لهم رخصة في مداهنتهم وعدم إظهار العداوة والبغضاء لهم ولدينهم لفعلوا ذلك ليخلصوا من تعذيب المشركين لهم، فلو كان بالإمكان مداهنة الكفار، لما حمل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – =

كيف[١] وقد أنزل الله عليه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة العنكبوت: ١٠]. [٢]

فإذا كانت هذه الآية فيمن وافقهم بلسانه، إذا أوذي[٣] فكيف بغير ذلك؟[٤]

= نفسه وأصحابه، مؤنة مواجهة الكفار بالعداوة والبغضاء وهو أرحم الناس بأصحابه وأتباعه، وقد أحب المشركون ذلك منه ولكنه لم يحصل من الرسول وصحابته ما طلب المشركون حصوله من المداهنة والموافقة لهم على الكفر، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]

قال المصنف في مختصر السيرة (٣٤): " فمن فهم هذا عرف أن الإسلام لا يستقيم إلا بالعداوة لمن تركه وعيب دينه، وإلا لو كان لأولئك المعذَّبين رخصة لفعلوا."

وقال الشيخ عبد اللطيف في مصباح الظلام (ص/ ٧١): "والآية [يعني آية النحل ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾] عامة يدخل فيها دخولًا أوليًّا من لم يعب دين المشركين، وأن آلهتهم لا تنفع ولا تضر، لأنه إذا لم يصرِّح بذلك فهو كاتم لما تضمنته كلمة الإخلاص من النفي، ولا رخصة في الكتمان إلا بشرطه المتقدِّم؛ وهذا لا خلاف فيه بين الأمة."

انظر الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية للجلعود (١/ ١٦٩).

(١) أي: كيف يرخص لهم، والحال قد أنزل الله عليه هذه الآية.

(٢) يَعْنِي أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: آمَنَّا بِاللهِ بِلِسَانِهِ، فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ، أَيْ: آذَاهُ الْكُفَّارُ إِيذَاءَهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ صَارِفَةً لَهُ عَنِ الدِّينِ إِلَى الرِّدَّةِ، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ كَعَذَابِ اللهِ فَإِنَّهُ صَارِفٌ رَادِعٌ عَنِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي. وَمَعْنَى فِتْنَةَ النَّاسِ، الْأَذَى الَّذِي يُصِيبُهُ مِنَ الْكُفَّارِ، وَإِيذَاءُ الْكُفَّارِ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْوَاعِ الِابْتِلَاءِ الَّذِي هُوَ الْفِتْنَةُ، وَهَذَا قَالَ بِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ. انظر أضواء البيان (٦/ ١٥٦) وتفسير السعدي (ص/ ٦٢٧).

(٣) لفظة (إذا أوذي) زيادة من الشيخ عبد اللطيف في مصباح الظلام (ص/ ٧٠).

(٤) أي: إذا كان هذا الوعيد في حق من وافق الكفار بلسانه مع الابتلاء والامتحان فكيف من لم يصرح بعيب =

= آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، والتصريح لهم بذلك، وهو غاية العداوة والبغضاء.

وفي الدرر السنية (٨/ ١٩٣): "يعني: من وافقهم بالقول والفعل بلا أذى، فظاهرهم، وأعانهم، وذب عنهم وعمن وافقهم، وأنكر على من خالفهم، كما هو الواقع.".

انظر مصباح الظلام للشيخ عبد اللطيف (ص/ ٧١).

المَوضِعُ الثَّالِثُ: [قِصَّةُ الغَرَانِيق] (١)

قصة قراءته ﷺ سورة النَّجم بحضرتهم،(٢) فلما بلغ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [سورة النجم:١٩]،(٣)

---

(١) مراد المصنف رحمه الله من ذكر هذا الموضع معرفة الفرق بين دين المسلمين والمشركين، وموضع المعركة بين محمد ﷺ وكفار قريش، وذلك لأن في هذه القصة بيان أن عبادة المشركين لآلهتهم كانت من قبيل الواسطة والشفاعة، لا لأنهم يعتقدون فيهم أن يخلقون أو يرزقون.

ووجه دلالة القصة لذلك على صحتها أنهم بمجرد ما سمعوا منه الثناء على آلهتهم وذكر أنهم يشفعون رضوا منه، وسجدوا لما سمعوا ذاك الكلام، واعتقدوا أنه انتهى ما بينهم وبين محمد ﷺ.

وفيها رد على المشركين الذين يقولون: نحن لا ندعو الأولياء على اعتقاد أنهم يخلقون ويرزقون أو ينفعون ويضرون، وإنما ندعوهم طلبا للشفاعة، فيقال لهم: هذه هي مقوله كفار قريش لأدلة كثيرة.

قال المصنف في مختصر السيرة (ص/ ٣٦): "فمن عرف هذه القصة وعرف ما عليه المشركون اليوم وما قاله ويقوله علماؤهم، ولم يميز بين الإسلام الذي أتى به النبي صلى الله عليه وسلم، وبين دين قريش الذي أرسل الله رسوله ينذرهم عنه، وهو الشرك الأكبر: فأبعده الله. ".

وهذه المَسألة هذه القاعدة الثانية من القواعد الأربع، وقد يسر الله توضيحها في حاشيتنا عليه، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

(٢) أي بحضرة كفار قريش والمشركين، وقراءة النبي ﷺ هذه السورة مع سماع كفار قريش منه وسجودهم عند قراءة هذه السورة أمر ثابت لا نكير عليه، ثبت في الصحيحين وغيره، ولكن ينبغي أن يفرق بين هذا وبين قصة الغرانيق التي سيأتي الكلام عليها، لأن المراد بها تكلمه بتلك الكلمات القبيحات، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

(٣) قال السعدي في تفسيره (ص/ ٨١٩): "لما ذكر تعالى ما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنى، سماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من =

أَلقَى الشَّيطَان فِي تِلَاوته:(١)

= الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال، فالآلهة التي بهذه الحال، لا تستحق مثقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا (اللات) من (الإله) المستحق للعبادة، و(العزى) من (العزيز) و (مناة) من (المنان) إلحادا في أسماء الله وتجريا على الشرك به، وهذه أسماء متجردة عن المعاني، فكل من له أدنى مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها."

(١) مراده أن هذه الكلمات لم ينطق بها رسول الله ﷺ، وإنما الشيطان ألقى ذلك في مسامعهم فقط فتنة للمشركين، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ ذلك، وليس كذلك في نفس الأمر.

وهذا أحد الاحتمالات التي يقولها من يثبت هذه القصة كالحافظ ابن حجر، بل هو أحسنها كما ذكره الحافظ، وعلى هذا فإن من أثبت هذه القصة لا يقولون بظاهرها.

وسئلت اللجنة عن صحة ما يقوله الشيخ محمد بن عبد الوها فيما يتعلق بهذه القصة، فقالوا: "قصة الغرانيق ليست صحيحة، وليس للشيطان سلطان أن يلقي على لسان النبي ﷺ شيئا من الباطل فيتلوه أو يتكلم به، وربما ألقى الشيطان قولا أثناء تلاوة النبي ﷺ يتكلم به الشيطان ويسمعه الحاضرون، أو يوسوس الشيطان وساوس يلقيها في نفوس الكفار، ومرضى القلوب من المنافقين، فيحسبها أولئك من الوحي وليست منه، فيبطل الله ذلك القول الشيطاني، ويزيل الشبه ويحكم آياته، ويتبين أيضا أن ما قاله الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله هو قول جمهور العلماء، من أن الشيطان ألقى قولا أو وسوسة أثناء التلاوة، ولكنها ليست على لسان النبي ﷺ ولا في نفسه ولا في نفس من صدق في إيمانه به، إنما ذلكم إلقاء من الشيطان أثناء التلاوة في أسماع الكفار، أو حديث نفس وقع في أسماعهم وقلوبهم فحسبوه قرآنا متلوا، وتأبى حكمة الله إلا أن يزيل الباطل ويحكم آياته؛ إحقاقا للحق، ورحمة بالعباد والله عليم حكيم، وقد أجمع علماء الإسلام كلهم على عصمة الرسل جميعا في كل ما يبلغونه عن الله جَلَّ وَعَلَا."

انظر الفتح (٨/ ٤٣٩) وفتاوى اللجنة الدائمة (٤/ ٣١٢) ومنهاج السنة (٢/ ٤٠٩).

(تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَى وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لِتُرْتَجَى).[١]

(١) وروي أيضا بلفظ: (تلك الغرانيق الأولى منها الشفاعة تُرْتجى)، يعني الملائكة، منها الشفاعة ترتجى، فإن الغرانيق والغرانقة جمع غرنوق وغرناق، وهو الحسن، وقيل: جمع غرنيق، وهو الطير العظيم، سمي الطائر به لبياضه، وكان العرب يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله وتشفع لهم، فشبهت بالطيور التي تعلو في السماء وترتفع.

وهذه القصة التي تسمى عند أهل العلم قصة الغرانيق وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم بهذه الكلمات قصة مشهورة منكرة، شبيهة بالوضع، يذكرها المفسرون عند قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢-٤٥]. وخلاصة ما ذكره العلماء فيها:

الأوَّل: أنها مع كثرة طرقها باطلة، وطرقها كُلُّهَا مُرْسَلَةٌ، وَلَمْ ير مُسْنَدَةً مِنْ وَجْهٍ صَحِيحٍ، روي عن عروة وسعيد بن جبير، وأبي العالية، وابن شهاب، وقتادة، والضحاك، وروي عن ابن عباس، ولم يصح منها شيء، ومن أحسن من تتبع على طرقها المحدث العلامة الألباني رحمه الله.

والثَّاني: أنها لا تصح مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ لِأَنَّ مَدْحَ إِلَهٍ غَيْرِ اللهَّ تَعَالَى كُفْرٌ وَلَا يَصِحُّ نِسْبَةُ ذَلِكَ إِلَى لِسَانِ رَسُولِ اللهَّ ﷺ وَلَا أَنْ يَقُولَهُ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهِ وَلَا يَصِحُّ تَسْلِيطُ الشَّيْطَانِ عَلَى ذَلِكَ.

وذكروا أوجها كثيرة عقلية تدل على بطلانها، ومن أحسن من ذكرها القاضي عياض والإمام الشنقيطي، ولابن العربي رسالة في هذه المسألة ذكرها في بعض كتبه ولم أقف عليها، واسمها: فضل تنبيه الغبي على مقدار النبي. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

وقد أنكر كثير من أهل العلم صحة هذه القصة، بل ذكر بعضهم أنها من وضع الزنادقة، كابن خزيمة، وابن العربي والرازي والقرطبي، والعيني والشوكاني والآلوسي وصديق حسن خان، والألباني وغيرهم.

انظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٨٧) وشرح مسلم (٥/ ٧٥) والفتح للحافظ (٨/ ٤٣٩) والشفا للقاضي (٢/ ١٢٥) مع حاشية الشمني والرحلة إلى بيت الله الحرام للشنقيطي (ص/) ونصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق للشيخ الألباني (ص/ ١٠) وانظر التحقيق في قصة الغرانيق للقُصَيِّر.

فظنُّوا أن رسول الله ﷺ قالها،(١) ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا،(٢) وقالوا كلامًا معناه:(٣) هذا الذي نريد،(٤) ونحن نعرف أن الله هو النَّافع الضَّار وحده لا شريك له،(٥) ولكن هؤلاء يشفعون لنا عنده.(٦)

---

(١) أي: هذه الكلمات.

(٢) وتلقاه الصغير والكبير منهم. الدرر السنية (٩/ ٣٧٧).

(٣) أي: مفاده ومضمونه.

(٤) أي: من محمد ﷺ، أي: أن يذكر آلهتنا بخير، وأن يطلب منهم الشفاعة.

(٥) أي: هو المتفرد بأفعاله من نفع وضر وخَلق ونحو ذلك من ربوبيَّته.

(٦) أي: فلا نعذب بذنوبنا، وَهَذَا غَايَةُ الْجَهَالَةِ مِنْهُمْ، حَيْثُ يَنْتَظِرُونَ الشَّفَاعَةَ فِي الْمَالِ مِمَّنْ لَا يُوجَدُ مِنْهُ نَفْعٌ وَلَا ضُرٌّ فِي الْحَالِ، ويتبين بهذا خلاصة دينهم وأنهم يوحدون لله الربوبية في الجملة، ولكنهم يشركونه في الألوهية، وأن الله عز وجل إنما كفرهم بسبب أنهم أثبتوا وسائط بينه وبينهم، وجعلوهم شفعاء عند الله تعالى، فجعل الله عز وجل دعوى الشفاعة لهم عين الشرك والكفر.

قال شيخ الإسلام: "فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ عَنْ الْمُشْرِكِينَ كَمَا تَقَدَّمَ بِأَنَّهُمْ أَثْبَتُوا وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ يَدْعُونَهُمْ وَيَتَّخِذُونَهُمْ شُفَعَاءَ بِدُونِ إذْنِ اللَّهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا هَؤُلَاءِ شُفَعَاءَ مُشْرِكُونَ، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ مُؤْمِنِ يس: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ–أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ –إنِّي إذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ –إنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ شُفَعَائِهِمْ أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ فِيهِمْ شُرَكَاءُ".

انظر الفتح القدير (٢/ ٤٩٢) ومجموع الفتاوى (٣/ ١٠٥).

فلما بلغ السَّجدة[١] سجد وسجدوا معه.[٢]

---

(١) أي: لما بلغ آخر السورة وهو قوله تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم (٦٢)].

(٢) أي: سجد النبي ﷺ وسجد المشركون معه، لما رواه الشيخان عن ابن مسعود قَالَ: «أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ وَالنَّجْمِ، قَالَ: فَسَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ»، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا، وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ.

وروى الإمام أحمد في مسنده والحاكم بسند صحيح عَنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ سَجَدَ فِي النَّجْمِ، وَسَجَدَ النَّاسُ مَعَهُ»، قَالَ الْمُطَّلِبُ: وَلَمْ أَسْجُدْ مَعَهُمْ - وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٌ -، قَالَ الْمُطَّلِبُ: وَلَا أَدَعُ السُّجُودَ فِيهَا أَبَدًا.

واستشكل بعضهم في سبب سجود المشركين إذا لم تكن القصة ثابتة، ويجاب عن هذا بأمور:

الأوَّل: أنهم سجدوا لدهشة أصابتهم وخوف اعتراهم عند سماع السورة لما فيها من قوله تعالى: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى- وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى- وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى- وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى- فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى}، فاستشعروا نزول مثل ذلك بهم، وهذا جواب الآلوسي.

والثَّاني: أنهم لم يكونوا سمعوا كلام الله قبل ذلك، لأن أسلوبهم المتواصل كان هو العمل بما تواصى به بعضهم بعضا، من قولهم: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة، وقرع آذانهم كلام إلهي رائع خلاب تفانوا عما هم فيه، وبقي كل واحد مصغيا إليه، لا يخطر بباله شيء سواه، حتى إذا تلا في خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب ثم قرأ: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (٥٣: ٦٢) ثم سجد، لم يتمالك أحد نفسه حتى خر ساجدا، وهذا ذكره المباركفوري.

والثَّالث: أن سجودهم كان لاستشعار مدح آلهتهم، ولايلزم منه ثبوت ذلك الخبر، لجواز أن يكون ذلك الاستشعار من قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى-وَمَنَاةَ- الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾، بناء على أن المفعول محذوف وقدّروه حسبما يشتهون، أو على أن المفعول: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾، وتوهّموا أن مصب الإنكار فيه كون المذكورات إناثًا، والحب لشيء يعمي ويُصمّ، وهذا بعيد، ذكره الشيخ الألباني.

انظر نصب المجانيق (ص/ ٦٨) والرحيق المختوم (ص/ ٤٥).

فشاع الخبر أنهم صافَوه،[١] وسمع بذلك من بالحبشة فرجعوا،[٢] فلما أنكر ذلك رسول الله ﷺ ،[٣] عادوا إلى أشر مما كانوا عليه. [٤]

ولما قالوا له:[٥] إنك قلت ذلك،[٦] خاف من الله خوفًا عظيمًا،[٧] حتى أنزل الله عليه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [سورة الحج:٥٢] الآية. [٨]

---

(١) صَافى الرَّجلَ: بادله الإخاءَ والمودَّةَ، أخلص له الودَّ (صافاه في السَّرَّاء والضَّرَّاء)، وفي نسخة: (صادقوه).

(٢) قال المصنف في مختصر السيرة (ص/ ٣٦): "حتى إن الخبر وصل إلى الصحابة الذين بالحبشة، فركبوا بالبحر راجعين لظنهم أن ذلك صِدْق."

(٣) أي: أنه لم يقل هذه المقولة.

(٤) من الإيذاء والعداوة البالغة، هذا من يثبت القصة، يقول ابن تيمية: "وَمِنْ هَذَا فَلَمْ يُعْلَمُ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ نَفَرَ بِرُجُوعِهِ عَنْ هَذَا، وَقَوْلُهُ: إِنَّ هَذَا مِمَّا أَلْقَاهُ الشَّيْطَانُ، وَلَكِنْ رَوَى أَنَّهُمْ نَفَرُوا لَمَّا رَجَعَ إِلَى ذَمِّ آلِهَتِهِمْ بَعْدَ ظَنِّهِمْ أَنَّهُ مَدَحَهَا، فَكَانَ رُجُوعُهُمْ لِدَوَامِهِ عَلَى ذَمِّهَا، لَا لِأَنَّهُ قَالَ شَيْئًا ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ أَلْقَاهُ. وَإِذَا كَانَ هَذَا لَمْ يُنَفِّرْ فَغَيْرُهُ أَوْلَى أَنْ لَا يُنَفِّرَ.". منهاج السنة (٢/ ٤١٠).

(٥) أي: لما ذُكِر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم: خاف أن يكون قاله، فخاف من الله خوفا عظيما.
انظر مختصر السيرة (ص/ ٣٧).

(٦) أي: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترجى.

(٧) لأنه ظن أنه قد قاله فحزن من هذا، هذا مما يدل على بطلان القصة، قال السعدي في تفسيره (٥٤٢): "فحصل بذلك للرسول حزن وللناس فتنة، كما ذكر الله، فأنزل الله هذه الآيات."

(٨) معناه: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تلا كتاب الله وقرأ أو حدّث وتكلم، ألقى الشيطان في كتاب الله الذي تلاه وقرأه، أو في حديثه الذي حدّث وتكلم، فينسخ الله ما يلقي الشيطان بقوله تعالى: فيُذْهِب الله ما يلقي الشيطان من ذلك، على لسان نبيه ويبطله. =

فمن فهم هذه القِصَّة[١] ثم شكَّ بعدها في دِينِ النَّبي ﷺ،[٢] ولم يفرِّق بينه وبين دين المشرِكين،[٣] فأبعده الله.[٤]

خصوصًا[٥] إن عرف أن قولهم: تلك الغرانيق: الملائكة.[٦]

❁ ❁ ❁

= قال الشيخ الألباني: "هذا هو المعنى المراد من هذه الآية الكريمة". انظر نصب المجانيق (ص/ ٩) وأضواء البيان (٥/ ٢٨١) وفتح القدير (٣/ ٥٤٦).

(١) أي: قصة الغرانيق، مع ضعفها.

(٢) وأنَّ المقصود منه توحيد الله في الألوهية.

(٣) وأنَّ المعركة بينهم كانت في توحيد الألوهية، لإقرارهم أصل توحيد الربوبية.

(٤) دعاء عليه بالهلاك، قال المصنف في مختصر السيرة (ص/ ٣٦): " فإن هذه القصة في غاية الوضوح، إلا من طبع الله على قلبه وسمعه. وجعل على بصره غشاوة، فذلك لا حيلة فيه، ولو كان من أفهم الناس، كما قال الله تعالى في أهل الفهم الذين لم يوفقوا: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية."

(٥) أي: لا سيما، لأنه حينئذ أنهم كانوا يستشفعون الملائكة كما يفعلون المتأخرون.

(٦) على ما ذكره كثير من المفسرين، وزعم بعضهم أن وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق العُلى لم يرِد لا في نظمهم ولا في خطبهم، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جاريًا على ألسنتهم إلا ما جاء في معجم ياقوت غير مسند ولا معروف بطريق صحيح.

وهذا يدل على أن القصة من اختراع الزنادقة كما قال ابن إسحاق، وربما كانت منشأ ما أورده ياقوت.

انظر الفتح الرباني لترتيب المسند الإمام أحمد للبنا (٤/ ١٧٩)

المَوضِعُ الرَّابِعُ: قِصَّةُ أَبِي طَالِب [١]

(١) أي: سيرة أبي طالب عم النبيِّ ﷺ تجاه دعوة رسول الله ﷺ، ومقصود المصنف من ذكر هذه القصة بيان أنه لا يكفي حب الإسلام والمسلمين، والإقرار بأنه حق، وأن غيره باطل، بل لابدَّ مع ذلك من اتباع هذا الدين والإيمان بالله ورسوله والانقياد إليهما، والدخول فيه حتى يكون الشخص مسلما.

وذلك لأن الإيمان هو الإقرار والاعتراف المستلزم للقبول والإذعان، وهو قول باللسان، وعمل بالأركان، وتصديق بالجنان، يزيد بطاعة الرحمن، وينقص بمعصية الديان.

وقولنا: الإيمان المستلزم للقبول والإذعان احترازًا مما لو أقر لكن لم يقبل كأبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم، حيث أقر بالنبي صلى الله عليه وسلم وأنه صادق لكن لم يقبل ما جاء به، ولم يُذعن ولم يتابع، فلم ينفعه الإقرار، فلابد من القبول والإذعان.

قال المصنف في كشف الشبهات: " لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلما. فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما، وهذا يغلط فيه كثير من الناس، ويقولون هذا حق، ونحن نفهم هذا ونشهد أنه الحق، ولكنا لا نقدر أن نفعله، ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم، أو غير ذلك من الأعذار، ولم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر يعرفون الحق ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار قال تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩] وغير ذلك من الآيات كقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]".

وقال العلامة ابن عثيمين: "وأبو طالب كان مقرًّا بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم، ويعلن بذلك، ويقول:

ولقد علمتُ بأنّ دينَ محمّدٍ *** من خير أديانِ البريّة دينًا

لولا الملامة أو حذار مسبّةٍ *** لرأيتني سمْحَاً بذاكَ مبينًا

وهذا إقرار واضح ودفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم ومع ذلك ليس بمؤمن، لفقده القبول والانقياد، فلم يقبل الدعوة ولم ينقد لها فمات على الكفر – والعياذ بالله –.".

انظر حاشيتي على كشف الشبهات (ص/ ٢٣٧-٢٤٠) وشرح الأربعين النووية لابن عثيمين (ص/ ٣٤، ١٦٢) والصلاة لابن القيم (ص/ ٥٦) والدرر السنية (ص/ ١٠/ ٨٧) ومجموع الفتاوى (١٠/ ٢٧١).

فمن فهمها[١] فهمًا حسنًا،[٢] وتأمَّل إقراره بالتَّوحيد،[٣] وحثِّ النَّاسِ عليه،[٤] وتسفيه عقول المشرِكِين،[٥]

---

(١) أي: قصة أبي طالب.

(٢) أي: ليس سيِّئًا، لكيلا تعتقد إسلامه كما زعمه بعضهم، والظاهر أن خبر (من) محذوف يفسره المذكور في آخر الفقرة، وهو قوله: "تبين له الهدى من الضلال، وعرف سوء الأفهام."

(٣) أي: إقرار أبي طالب توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واعترافه، مع أنه لم يأخذ به، ويدل على ذلك الأبيات التي ستأتي.

(٤) أي: أنه كان يبيِّن أن دين محمد هو أحسن الأديان، ومن ذلك قوله:

وَدَعَوْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ نَاصِحِي *** فَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ قِدْمُ أَمِينَا

وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَرَفْتُ بِأَنَّهُ *** مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حَذَارِيَ سُبَّةً *** لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

البداية والنهاية (٤/ ١٠٩).

(٥) لا أعلم لهذا شاهدا، ويمكن أنه يقصد القصة المشهورة التي ذكرها ابن إسحاق وابن هشام وابن كثير وغيرهم، قال ابن كثير: قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ إِنَّ قُرَيْشًا حِينَ عَرَفُوا أَنَّ أَبَا طَالِبٍ قَدْ أَبَى خِذْلَانَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَإِسْلَامَهُ، وَإِجْمَاعَهُ لِفِرَاقِهِمْ فِي ذَلِكَ وَعَدَاوَتِهِ، مَشَوْا إِلَيْهِ بِعُمَارَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالُوا لَهُ فِيمَا بَلَغَنِي: يَا أَبَا طَالِبٍ هَذَا عُمَارَةُ بْنُ الْوَلِيدِ أَنْهَدُ فَتًى فِي قُرَيْشٍ، وَأَجْمَلُهُ فَخُذْهُ، فَلَكَ عَقْلُهُ وَنَصْرُهُ، وَاتَّخِذْهُ وَلَدًا فَهُوَ لَكَ، وَأَسْلِمْ إِلَيْنَا ابْنَ أَخِيكَ هَذَا الَّذِي قَدْ خَالَفَ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ، وَفَرَّقَ جَمَاعَةَ قَوْمِكَ، وَسَفَّهَ أَحْلَامَهَا، فَنَقْتُلَهُ، فَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ بِرَجُلٍ. قَالَ: وَاللهِ لَبِئْسَ مَا تَسُومُونَنِي! أَتُعْطُونَنِي ابْنَكُمْ أَغْذُوهُ لَكُمْ، وَأُعْطِيكُمُ ابْنِي تَقْتُلُونَهُ! هَذَا وَاللهِ مَا لَا يَكُونُ أَبَدًا. قَالَ: فَقَالَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيِّ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيٍّ: وَاللهِ يَا أَبَا طَالِبٍ لَقَدْ أَنْصَفَكَ قَوْمُكَ، وَجَهَدُوا عَلَى التَّخَلُّصِ مِمَّا تَكْرَهُ، فَمَا أَرَاكَ تُرِيدُ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ شَيْئًا. فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ لِلْمُطْعِمِ: وَاللهِ مَا أَنْصَفُونِي، وَلَكِنَّكَ قَدْ أَجْمَعْتَ خِذْلَانِي، وَمُظَاهَرَةَ الْقَوْمِ عَلَيَّ، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ. أَوْ كَمَا قَالَ." البداية والنهاية (٤/ ١٢٢).

ومحبته لمن أسلم وخلع الشرك،[١] ثم بذل عمره وماله وأولاده وعشيرته،[٢] في نصرة رسول الله ﷺ إلى أن مات. [٣]

ثم صبر على المشقَّة العَظِيمة،[٤] والعداوة البالغة، لكن لَمَّا لم يدخل فيه،[٥]

---

(١) أي: محبة طبيعيَّة لا دينيَّة، فكأنه لما عرف أنهم مع ابن عمه أحبهم لذلك، ولذلك كان يناصرهم، يقول ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ١٠٦): "وَأَمَّا أَبُو طَالِبٍ فَكَانَ فِي غَايَةِ الشَّفَقَةِ وَالْحُنُوِّ الطَّبِيعِيِّ، كَمَا سَيَظْهَرُ مِنْ صَنَائِعِهِ، وَسَجَايَاهُ، وَاعْتِمَادِهِ فِيمَا يُحَامِي بِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَأَصْحَابِهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ."

(٢) وأمَّا بذل عمره فهو مناصرته لهم ليل نهار، والرفاع عنهم، ودخول الفتن معهم، والجلسات مع قريش لأجلهم، وأما المال فلأنه كان يكفل النبي ﷺ، وأما بذل أولاده لأن منهم من أسلم كجعفر وعليّ ولم ينكر عليهما، وأما بذل عشيرته فظاهر لمن تأمل قصة حصار الشعب، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

(٣) وفي ذلك دلالة على أن الله تعالى عصمه بعمه مع خلافه إياه في دينه، وقد كان يعصمه حيث لا يكون عمه بما يشاء لا معقب لحكمه. انظر البداية والنهاية (٤/ ١٠٩) وصحيح السيرة النبوية للعلامة الألباني (ص/ ١٤٤). ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٨٨).

(٤) وقاسى في ذلك الشدائد العظيمة، من حصار وغيره. مختصرة السيرة للمصنف (ص/ ٣٤).

(٥) أي: في دين رسول الله ﷺ بحيث يتبرأ من تلك الآلهة التي تعبد من دون الله، ويعلن براءته منها، ثم ينقاد لله عز وجل على ما أمر رسول الله ﷺ، ولكنه لم يفعل ذلك كله، فلا بدَّ أن يفرَّق بين المعرفة وبين التعلم والدخول في الدين، فإن أبا طالب كان يعرف الدين لكن ما دخل فيه، ولم يتبع النبي ﷺ.

قال ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ١٢١): "فَعَظُمَ عَلَى أَبِي طَالِبٍ فِرَاقُ قَوْمِهِ وَعَدَاوَتُهُمْ، وَلَمْ يَطِبْ نَفْسًا بِإِسْلَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَا خِذْلَانِهِ."

انظر مصباح الظلام (ص/ ٢١٤).

ولم يتبرَّأ من دينه الأوَّل،(١) لم يَصر مسلمًا،(٢)

---

(١) وكان في هذا -والله أعلم- مصالح عظيمة للمسلمين، ولذلك يقول ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ١٠٤): "وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَيْهِ عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ، وَاسْمُهُ عَبْدُ الْعُزَّى بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَامْرَأَتُهُ أُمُّ جَمِيلٍ أَرْوَى بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ، وَخَالَفَهُ فِي ذَلِكَ عَمُّهُ أَبُو طَالِبِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَحَبَّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيْهِ طَبْعًا، فَكَانَ يَحْنُو عَلَيْهِ وَيُحْسِنُ إِلَيْهِ، وَيُدَافِعُ عَنْهُ وَيُحَامِي، وَيُخَالِفُ قَوْمَهُ فِي ذَلِكَ، مَعَ أَنَّهُ عَلَى دِينِهِمْ وَعَلَى خُلَّتِهِمْ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ امْتَحَنَ قَلْبَهُ بِحُبِّهِ حَبًّا طَبْعِيًّا لَا شَرْعِيًّا، فَكَانَ اسْتِمْرَارُهُ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِمَّا صَنَعَهُ لِرَسُولِهِ مِنَ الْحِمَايَةِ، إِذْ لَوْ كَانَ أَسْلَمَ أَبُو طَالِبٍ لَمَا كَانَ لَهُ عِنْدَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَجَاهَةٌ وَلَا كَلِمَةٌ، وَلَا كَانُوا يَهَابُونَهُ وَيَحْتَرِمُونَهُ، وَلَاجْتَرَؤُوا عَلَيْهِ وَلَمَدُّوا أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ إِلَيْهِ، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] وَقَدْ قَسَّمَ خَلْقَهُ أَنْوَاعًا وَأَجْنَاسًا، فَهَذَانَ الْعَمَّانِ كَافِرَانِ أَبُو طَالِبٍ وَأَبُو لَهَبٍ وَلَكِنَّ هَذَا يَكُونُ فِي الْقِيَامَةِ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَذَلِكَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ سُورَةً فِي كِتَابِهِ تُتْلَى عَلَى الْمَنَابِرِ، وَتُقْرَأُ فِي الْمَوَاعِظِ وَالْخُطَبِ، تَتَضَمَّنُ أَنَّهُ ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: ٣-٤]."

(٢) ودليل ذلك ما في الصحيحين عن سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ الله ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ، وَعَبْدَ الله بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : " يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله "، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ الله ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «أَمَا وَالله لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

مع أنه يعتذر من ذَلك بأن فيه مسبَّة لأبيه عبد المطَّلب،[١] ولهاشم[٢] وغيرهما من مشايخهم.[٣]

---

(١) لأن المسلمين يقولون: إن عبد المطلب كان على كفر وشرك.

(٢) جدُّه، وكأن من ترك دين أحد يلزم منه سبه.

(٣) أي: مشايخ قريش، وهذا دليل على أنه لولا هذا العذر لاتَّبع دين محمد صلى الله عليه وسلم ويدل على هذا قوله: لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حَذَارِيَ سُبَّةً *** لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

قال المصنف: "واعتذر عن ذلك بأنه لا يرضى بمسبة آبائه. ولولا ذلك لاتبعه."

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن: "وفي قصة أبي طالب وأمره لابنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأن يلزم ما دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع محبته للرسول صلى الله عليه وسلم وعدم بغض دينه ومن دخل فيه ونصرته ومدحه، ومع ذلك لم يرغب عن ملة عبد المطلب، وحكم الله بكفره ونهى رسوله عن الاستغفار له، وهذا في أول السيرة يفهمه صغار الطلبة، وقد خفي على ضخم العمامة واسع الأردان، قال أبو طالب في منظومته المشهورة:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب *** لدينا ولا يعني بقول الأباطل

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه *** ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وقال:

وعرضت دينا قد عرفت بأنه *** من خير أديان البرية دينا

ولقد علمت بأن دين محمد *** من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أوحذار مسبة *** لوجدتني سمحا بذاك مبينا

ومع ذلك كله لا تعلّم الدين ولا دخل فيه، فهو من النوع الذي مثل به الشيخ... وأهل العلم عرفوا التوحيد والإيمان بأنه: قبول ما جاء به الرسول من الهدى ودين الحق باطنا وظاهرا، وإيثاره على غيره، وهذا يدخل فيه علم القلب وعمله، وقول اللسان وعمل الأركان، فأين هذا من مجرد المعرفة وعدم البغض؟".

انظر مختصر السيرة (ص/ ٣٦) ومصباح الظلام (ص/ ٢١٤) واضواء البيان (٥/ ٣٤١).

ثم مع قرابته[١] ونصرته، استغفر له رسول الله ﷺ،[٢] فأنزل الله عليه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [سورة التوبة:١١٣]. [٣]

---

(١) لكونه عم النبي ﷺ وكفيله.

(٢) وفاء لقوله: لأستغفرن لك، أي: أطلب من الله أن يغفر لك حتى ينجيك من عذابه، وفي هذا رد على الصوفية الحمقى، في أن غفران الذنوب من خصائص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(٣) قال الطبري في تفسيره (١٢/ ١٩): "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: مَا كَانَ يَنْبَغِي لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا، يَقُولُ: أَنْ يَدْعُوا بِالْمَغْفِرَةِ لِلْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ أُولِي قُرْبَى، ذَوِي قَرَابَةٍ لَهُمْ. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يَقُولُ: مِنْ بَعْدِ مَا مَاتُوا عَلَى شَرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ قَضَى أَنْ لَا يَغْفِرَ لِمُشْرِكٍ فَلَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يَفْعَلَ مَا قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ فَإِنْ قَالُوا: فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ قَدِ اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ، وَهُوَ مُشْرِكٌ، فَلَمْ يَكُنِ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا لِمَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ وَعَلِمَ أَنَّهُ للهِ عَدُوٌّ خَلَّاهُ وَتَرَكَ الِاسْتِغْفَارَ لَهُ، وَآثَرَ اللَّهَ وَأَمْرَهُ عَلَيْهِ، فَتَبَرَّأَ مِنْهُ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ أَمْرُهُ."

وفي الصحيحين عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

وفي الصحيحين أيضا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، فَقَالَ: «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي مِنْهُ أُمُّ دِمَاغِهِ».

والذي يبين هذا[١] أنه إذا عُرف رجل من أهل البصرة[٢] أو الأحساء،[٣] يحب الدين ويحب المسلمين،[٤] ظن أكثر الناس أنه مع المسلمين،[٥] مع أنه لم ينصر الدين بيد ولا مال، ولا له من الأعذار مثل ما لأبي طالب. [٦]

---

(١) أي: أنه لا ينفع الإقرار بأن الإسلام حق وأن التوحيد حق ومناصرته مع عدم اتباعه، فكأنه أراد أن مما يوضح غفلة الناس عن هذا الأمر أن كل من وجدوا أنه يحب التوحيد والموحدين ويقول إنهم على حق يظنون أنه من الموحدين مع أنه لا يعلم عنه اتباع ولا مناصرة للموحدين، فإذا كان أبو طالب الذي نصر رسول الله ﷺ لم يكن مسلما لعدم اتباعه لأجل الأعذار التي يذكره، فكيف يكون موحدا من لم ينصر ولم يتبع وليس له مثل أعذار أبي طالب، وإن لم تكن مقبولة، هذا الذي ظهر لي من كلام المصنف.

قال المصنف: "من عرف أن التوحيد دين الله ورسوله، الذي أظهرناه للناس، وأقر أيضا أن هذه الاعتقادات في الحجر، والشجر، والبشر، الذي هو دين غالب الناس، أنه الشرك بالله، الذي بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم ينهى عنه، ويقاتل أهله، ليكون الدين كله لله، ومع ذلك لم يلتفت إلى التوحيد، ولا تعلمه، ولا دخل فيه، ولا ترك الشرك، فهو كافر، نقاتله بكفره؛ لأنه عرف دين الرسول فلم يتبعه، وعرف الشرك فلم يتركه، مع أنه لا يبغض دين الرسول، ولا من دخل فيه، ولا يمدح الشرك، ولا يزينه للناس. ". الدرر السنية (١/ ١٠٢).

(٢) أي: العظمى، وهي بصرة العراق، وطولها أربع وسبعون درجة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة، وهي في الإقليم الثالث. معجم البلدان (١/ ٤٣٠).

(٣) بالفتح والمدّ، مدينة في جنوب المملكة السعودية، وغالب أهلها روافض، والله أعلم.

(٤) أي: يحبون دعوة التوحيد ورجالها الداعين إلى التوحيد.

(٥) هذه جواب (إذا)، وهي ساقطة من نسخة مؤلفات الشيخ ابن عبد الوهاب (١/ ٣٥٧).

(٦) قال العلامة الفوزان حفظه الله: "يقصد بذلك العلماء الذين في وقته الذين عرفوا الحق وعرفوا التوحيد وعرفوا بطلان الشرك، لكن مع هذا لم يقوموا بالدعوة إلى الله والأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك والإنكار على المشركين."

فَمن فَهِم قِصَّة أَبِي طَالب،[١] وَفَهِم الوَاقِع مِن أكثر من يدعِي الدِّين،[٢] تبين له الهدى من الضلال،[٣] وعرف سُوء الأفهام،[٤] والله المستعان.[٥]

❁ ❁ ❁

(١) ساقطة من نسخة مؤلفات الشيخ ابن عبد الوهاب (١/ ٣٥٧).

قال العلامة الفوزان: "فدل هذا على أن مدح الإسلام، ومدح الرسول ﷺ، واعتقاد أن الإسلام حق، وأن الرسول حق من غير اتباع للرسول ﷺ أن ذلك لا تنفع، وأنه لا بدَّ من اتباع الرسول ﷺ ، لأن هذا لو كان ينفع لنفع أبا طالب، فإن الإقرار بأن الإسلام حق، وأن الرسول صادق، مع المدافعة عن الإسلام وحماية الإسلام كل هذا لا ينفع إلا مع الاتباع." سلسلة شرح الرسائل (ص/ ٨٢).

(٢) أي: الإسلام والتوحيد.

(٣) من أنه لا يكفي الإقرار بدون اتباع، أو الاعتراف بعبارة أدق.

(٤) سوء فهم الناس في كثير من المسائل، لا سيما في مسائل التوحيد والشرك.

(٥) قال المصنف في مختصر السيرة (ص/ ٣٦): " فيا لها من عبرة ما أبينها! ومن عظة ما أبلغها! ومن بيان ما أوضحه! لما يظن كثير ممن يدعي اتباع الحق فيمن أحب الحق وأهله، من غير اتباع للحق، لأجل غرض من أغراض الدنيا."

المَوضِعُ الخَامِسُ: قِصَّة الهِجرَة[١]

وفيها من الفوائد والعبر[٢]

---

(١) يريد هجرة النبي ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة، والله أعلم.

ومراد الشيخ رحمه الله من ذكر هذا الموضع كما سيصرح أنه لا يجوز للموحد المسلم أن يتساهل في أمر الهجرة، وأن يكون مع المشركين ولو من غير محبة لهم، لأن الهجرة واجبة على كل مسلم إذا استطاع، ولم يقدر على إظهار دينه، ولكن ينبغي أن ينتبه أن المصنف لا يرى تكفير من لم يهاجر كما زعمه بعضهم، فإنه قال كما في الدرر السنية (١/ ١٠٤): "وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم، الذي على عبد القادر، والصنم الذي على قبر أحمد البدوي، وأمثالهما، لأجل جهلهم، وعدم من ينبههم، فكيف نكفر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا، أو لم يكفر ويقاتل؟: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] ."

ويقول بعض أتباع الشيخ: "ونحن نعلم أنه يأتيكم أعداء لنا، يكذبون علينا عندكم، ويرموننا عندكم بالعظائم، حتى يقولوا: إنهم يسبون النبي ﷺ ، ويكفرون الناس بالعموم، وإنا نقول: إن الناس من نحو ستمائة سنة ليسوا على شيء، وإنهم كفار، وإن من لم يهاجر إلينا فهو كافر، وأضعاف أضعاف ذلك من الزور، الذي يعلم العاقل أنه من الظلم، والعدوان، والبهتان." الدرر السنية (١/ ٢٦٣).

(٢) أي: في قصة الهجرة فوائد كثيرة، وهي لغة الترك، والانتقال من أرض إلى أرض.

وفي الشرع: الانتقال من مواضع الشرك والمعاصي، إلى بلد الإسلام والطاعة. فكل موضع لا يقدر الإنسان فيه على إظهار دينه، يجب عليه أن يهاجر إلى موضع يقدر فيه على إظهار دينه؛ وانتقاله إلى ذلك الموضع الذي يتمكن فيه من إظهار دينه، يسمى هجرة، والبلد الذي يهاجر إليها يسمى مهاجَرًا بفتح الجيم، ويسمى دار هجرة. وأما إطلاق الهجرة على الموضع الذي يهاجر إليه، فهو اصطلاح حادث. أفاده الشيخ سعد عتيق.

وبهذا يظهر أن الهجرة في الاصطلاح على قسمين:

الأول: هجرة عامَّة، وهي ترك ما نهى الله عنه، ورسوله، كما في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ». رواه البخاري في صحيحه.

والثَّاني: هجرة خاصَّة، وهي على ثلاثة أقسام: =

ما لا يعرفه أكثر من قرأها،(١) ولكن مرادنا الآن مسألة من مسائلها،(٢) وهي أن من أصحاب رسول الله ﷺ من لم يهاجر(٣) من غير شكٍّ في الدين،(٤) وتزيين دين المشركين،(٥) ولكن محبة للأهل والمال والوطن.(٦)

= الأوَّل: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، كهجرة المسلمين إلى المدينة.
الثَّاني: الانتقال من بلد البدعة إلى بلد السنَّة، نصَّ عليها الإمام مالك.
الثالث: الانتقال من أرض خوف إلى دار الأمن بغض النظر عن إسلامية تلك الدار أو كفريتها، كهجرتي الحبشة. انظر الدرر السنية (٨/ ٤٩٦).

(١) أي: ولم يتدبر فيها.

(٢) أي: المتعلقة بالهجرة.

(٣) أي: من مكة إلى المدينة بعد أمر النبي ﷺ الهجرة.

(٤) أي: مع يقينهم وتصديقهم بهذا الدين يقينا جازما.

(٥) أي: تحسين دين المشركين، والترغيب فيه، وذكر منفعته، لأن فعل ذلك كفر مستقل، ففي مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٨/ ٥٥): "وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُصَنِّفُ فِي دِينِ الْمُشْرِكِينَ وَالرِّدَّةِ عَنْ الْإِسْلَامِ كَمَا صَنَّفَ الرَّازِي كِتَابَهُ فِي عِبَادَةِ الْكَوَاكِبِ وَأَقَامَ الْأَدِلَّةَ عَلَى حُسْنِ ذَلِكَ وَمَنْفَعَتِهِ وَرَغَّبَ فِيهِ وَهَذِهِ رِدَّةٌ عَنْ الْإِسْلَامِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَكُونُ عَادَ إلَى الْإِسْلَامِ". انظر مجموع الفتاوى (٤/ ٥٥)

(٦) أي: كراهة مفارقة الأهل والوطن والأقارب، فهو كقول الله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٢٤]. قاله المصنف في مختصر السيرة (ص/ ٣٧).

فلما خرجوا إلى بدر،[١] خرجوا مع المشركين كارهين،[٢] فقتل بعضهم بالرمي، والرامي لا يعرفه.[٣]

فلمَّا سمع الصَّحَابة أنَّ من القتلى فلانًا وفلانًا[٤] شَقَّ عليهم،[٥] وقالوا: قتلنا إخواننا،[٦] فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ

---

(١) أي: حين خرج المشركون إلى غزوة بدر.

(٢) أي: غير مختارين وراضين.

(٣) روى البخاري برقم (٤٥٩٦) عن ابن عباس رضي الله عنه: «أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ، عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ، فَيَقْتُلُهُ - أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ» - فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧].

(٤) قال ابن كثير في البداية (٥/ ١٥٩): "وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِيمَنْ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ مِمَّنْ كَانَ مُسْلِمًا، وَلَكِنَّهُ خَرَجَ مَعَهُمْ تَقِيَّةً مِنْهُمْ، لِأَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ مُضْطَهَدًا قَدْ فَتَنُوهُ عَنْ إِسْلَامِهِ، جَمَاعَةً، مِنْهُمُ الْحَارِثُ بْنُ زَمْعَةَ بْنِ الْأَسْوَدِ، وَأَبُو قَيْسِ بْنُ الْفَاكِهِ وَأَبُو قَيْسِ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَعَلِيُّ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَالْعَاصُ بْنُ مُنَبِّهِ بْنِ الْحَجَّاجِ. قَالَ: وَفِيهِمْ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]".

(٥) أي: تأسفوا على ذلك. مختصر السيرة للمصنف. (ص/ ٣٧).

(٦) في تفسير ابن أبي حاتم عن ابن عباس قَالَ: كَانَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَسْلَمُوا وَكَانُوا يَسْتَخْفُونَ بِالْإِسْلَامِ، فَأَخْرَجُهُمُ الْمُشْرِكُونَ مَعَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَأُصِيبَ بَعْضُهُمْ وَقُتِلَ بَعْضٌ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ، كَانَ أَصْحَابُنَا هَؤُلَاءِ مُسْلِمِيْنَ، وَأُكْرِهُوا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ، فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. قَالَ: فَكَتَبَ إِلَيَّ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَأَنَّهُ لَا عُذْرَ لَهُمْ قَالَ: فَخَرَجُوا فَلِحِقَهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَأَعْطُوهُمُ الْفِتْنَةَ، فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٨] الْآيَةَ.

وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوّٗا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾ [سورة النساء:٩٧-٩٩]. (١)

(١) قال السعدي في تفسيره (ص/ ٢٩٥): "هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، فإن الملائكة الذين يقبضون روحه يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم، ويقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كثرتم سوادهم، وربما ظاهرتموهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير، والجهاد مع رسوله، والكون مع المسلمين، ومعاونتهم على أعدائهم.

﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: ضعفاء مقهورين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة. وهم غير صادقين في ذلك لأن الله وبخهم وتوعدهم، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، واستثنى المستضعفين حقيقة.

ولهذا قالت لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ وهذا استفهام تقرير، أي: قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة، فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعًا وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله، كما قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وهذا كما تقدم، فيه ذكر بيان السبب الموجِب، فقد يترتب عليه مقتضاه، مع اجتماع شروطه وانتفاء موانعه، وقد يمنع من ذلك مانع. وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من الكبائر".

فمن تأمَّل قصتهم،[١] وتأمل قول الصَّحابة: قتلنا إخواننا،[٢] علم أنه لم يبلغهم عنهم كلام في الدِّين،[٣] أو كلام في تَزيين دين المشركين.[٤]

---

(١) أي: قصَّة أولئك الذين لم يهاجروا.

(٢) أي: تأمل إثبات الصحابة لهم الأخوة الإيمانية، وتأسفهم على قتلهم.

(٣) في نسخة مؤلفات الشيخ: "فمن تأمل قصتهم وتأمل قول الصحابة: (قتلنا إخواننا)، علم أنه لو بلغهم عنهم كلام في الدين أو كلام في تزيين دين المشركين لم يقولوا: قتلنا إخواننا."

(٤) مضمونه لم يسمع عنهم أنهم ارتدُّوا عن دين الله، لأنهم لم يسبوا الله ولا رسوله ولا نبيه ولا دينه، ولم يستحسنوا دين المشركين، فهو لم يرتكبوا ناقضا من نواقض الإسلام.

ويؤيِّد هذا ما ذكره ابن كثير وغيره، وهو أن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه، من الناس من كان يظهر الكفر مستكرها وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقلَّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضا لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة بدر وأظهر الله كلمته وأعز الإسلام وأهله وجد بعد ذلك النفاق، وأظهر جماعة من المنافقين الدخول في الإسلام، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد نافق؛ لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرها، بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة."

قال المصنِّف: "فليتأمل الناصح لنفسه هذه القصة، وما أنزل الله فيها من الآيات. فإن أولئك لو تكلموا بكلام الكفر، وفعلوا كفرًا ظاهرًا يُرضون به قومهم: لم يتأسف الصحابة على قتلهم".

ويقول العلامة الفوزان: "ما ذكر عنهم أنهم مالوا مع المشركين أو مدحوا المشركين، بل يبغضون دين المشركين وكانوا على التوحيد وكانوا مخلصين لله، وليس فيهم نفاق، لكن تركوا شيئا واحدا وهو الهجرة من غير عذر فلامهم الله على ذلك."

انظر تفسير ابن كثير (١/ ٨٧) ومختصر السيرة للمصنِّف (ص/ ٣٧) وسلسلة شرح الرَّسائل (ص/ ٩٠).

ولو بَلَغهم شيء من ذلك لم يقولوا: قتلنا إخواننا؛[١] فإن الله قد بيَّن لهم وهم بمكة قبل الهجرة[٢] أن ذلك[٣] كفر بعد الإيمان،[٤] بقوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [سورة النحل:١٠٦]. [٥]

---

(١) أي: لو سمعوا عنهم كلاما أو فعلا يرضون به المشركين من غير إكراه، ما كانوا يقولون: " قتلنا إخواننا ". مختصر السيرة للمصنف (ص/ ٣٧).

(٢) هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.

(٣) أي: الكلام في الدين وسب الله ورسوله ودينه، وتحسين دين المشركين.

(٤) أي: ارتداد عن دين الله، والمرتد أسوأ من الكافر الأصلي، لأنه من عرف بشاشة الإيمان وحلاوته ثم تركه.

(٥) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٢٠): "فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِمَّنْ كَفَرَ بِلِسَانِهِ وَوَافَقَ الْمُشْرِكِينَ بِلَفْظِهِ مُكْرَهًا لِمَا نَالَهُ مِنْ ضَرْبٍ وَأَذًى، وَقَلْبُهُ يَأْبَى مَا يَقُولُ، وَهُوَ مُطَمْئِنٌّ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ."

وقال البغوي في تفسيره (٥/ ٤٩): "وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى: أَنْ مَنْ أُكْرِهَ عَلَى كَلِمَةِ الْكُفْرِ، يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَقُولَ بِلِسَانِهِ، وَإِذَا قَالَ بِلِسَانِهِ غَيْرَ مُعْتَقِدٍ لَا يَكُونُ كُفْرًا، وَإِنْ أَبَى أَنْ يَقُولَ حَتَّى يُقْتَلَ كَانَ أَفْضَلَ".

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: "فحكم تعالى حكمًا لا يبدل: أن من رجع عن دينه إلى الكفر فهو كافر، سواء كان له عذر خوفًا على نفس أو مال أو أهل أم لا، وسواء كفر بباطنه وظاهره أم بباطنه دون ظاهره، وسواء كفر بفعاله أو مقاله، أو بأحدهما دون الآخر، وسواء كان طامعًا في دنيا ينالها من المشركين أم لا، فهو كافر على كل حال، إلا المكره، وهو في لغتنا: المغصوب."

وقال شيخ الإسلام: "مَنْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَاتِ الْكُفْرِ طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ وَمَنْ اسْتَهْزَأَ بِاَللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ فَهُوَ كَافِرٌ بَاطِنًا وَظَاهِرًا وَأَنَّ مَنْ قَالَ: إنَّ مِثْلَ هَذَا قَدْ يَكُونُ فِي الْبَاطِنِ مُؤْمِنًا بِاَللَّهِ وَإِنَّمَا هُوَ كَافِرٌ فِي الظَّاهِرِ فَإِنَّهُ قَالَ قَوْلًا مَعْلُومَ الْفَسَادِ بِالضَّرُورَةِ مِنْ الدِّينِ."

انظر الدرر السنية (٨/ ١٣١-١٣٢) ومجموع الفتاوى (٧/ ٥٥٧-٥٥٨).

وأبلغ من هذا[١] ما تقدَّم من كلام الله فيهم،[٢] فإن الملائكة تقول: ﴿فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾،[٣] ولم يقولوا: كيف تصديقكم؟[٤] ﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [سورة النساء آية: ٩٧]،[٥] ولم يقولوا: كذبتم،[٦] مثل ما يقول الله والملائكة للمجاهد الذي يقول: جاهدت في سبيلك حتى قتلت، فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، بل قاتلتَ ليقال جريء،[٧] وكذلك يقولون للعالم والمتصدِّق: كذبت، بل تعلمت ليقال: عالم، وتصدقت ليقال: جواد. [٨]

---

(١) من قتلهم، أو أبين من يتدبر في قصتهم.

(٢) وأنه قال فيهم: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. وأنزل فيهم قرآنا يتلى إلى يوم القيامة.

(٣) أي: فِي أَيِّ شَيْءٍ كُنْتُمْ مِنْ دِينِكُمْ. قاله الطبري في تفسيره (٧/ ٣٧٩).

(٤) أي: لم يقولوا: كيف عقيدتكم؟ أو كيف فعلكم؟ بل قالوا: في أي الفريقين كنتم؟ فاعتذروا. قاله المصنف في مختصر السيرة (ص/ ٣٨).

(٥) يَسْتَضْعِفُنَا أَهْلُ الشِّرْكِ بِاللهِ فِي أَرْضِنَا وَبِلَادِنَا بِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، فَيَمْنَعُونَا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ ﷺ، مَعْذِرَةٌ ضَعِيفَةٌ وَحُجَّةٌ وَاهِيَةٌ. قاله الطبري في تفسيره (٧/ ٣٧٩).

(٦) لم تكذبهم الملائكة في قولهم هذا. قاله المصنف في مختصر السيرة (ص/ ٣٨).

هذا إذا أرادوا ما ذكره الطبري، وأما إذا أرادوا أنهم ما يستطيعون الهجرة فغير صحيح، وهذا هو مراد السعدي بقوله: ضعفاء مقهورين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة. وهم غير صادقين في ذلك لأن الله وبخهم وتوعدهم، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، واستثنى المستضعفين حقيقة. تفسير السعدي (ص/ ٢٩٥). والذي ذكره الطبري أقرب، والله أعلم.

(٧) أي: شجاع؛ يعني: غرضُك مِن قتالِك إظهارُ شجاعتك، لا لإعلاء دِيني ولا لرضائي. شرح مصابيح السنة لابن الملك (١/ ١٩٧)

(٨) أي: سَخِيٌّ، والمصنف يشير إلى ما رواه مسلم في صحيحه برقم (١٩٠٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: =

وأما هؤلاء[١] فلم يكذِّبوهم،[٢] بل أجابوهم بقولهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. [٣]

= سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

(١) أي: الذين لم يهاجروا من مكة إلى المدينة.

(٢) ما قيل لهم: كذبت.

(٣) فَتَخْرُجُوا مِنْ أَرْضِكُمْ وَدُورِكُمْ، إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي يَمْنَعُكُمْ أَهْلُهَا مِنْ سُلْطَانِ أَهْلِ الشِّرْكِ بِاللهِ، فَتُوَحِّدُوا اللهَ فِيهَا وَتَعْبُدُوهُ، وَتَتَّبِعُوا نَبِيَّهُ. قاله الطبري في تفسيره (٧/ ٣٧٩).

ويزيد ذلك إيضاحًا للعَارف والجَاهل الآية التي بعدها،[١] وهي قوله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾

[سورة النساء:٩٨]. [٢]

---

(١) أي: أنه لا يعذر إلا من ترك الهجرة عاجزا عنها. سلسلة شرح الرسائل (ص/ ٩٢).

(٢) قال الطبري في تفسيره (٧/ ٣٧٩): "ثُمَّ اسْتَثْنَى جَلَّ ثَنَاؤُهُ الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ اسْتَضْعَفَهُمُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ، وَهُمُ الْعَجَزَةُ عَنِ الْهِجْرَةِ بِالْعُسْرَةِ وَقِلَّةِ الْحِيلَةِ وَسُوءِ الْبَصَرِ وَالْمَعْرِفَةِ بِالطَّرِيقِ مِنْ أَرْضِهِمْ أَرْضِ الشِّرْكِ إِلَى أَرْضِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ أَخْبَرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ أَنْ تَكُونَ جَهَنَّمُ مَأْوَاهُمْ، لِلْعُذْرِ الَّذِي هُمْ فِيهِ، عَلَى مَا بَيَّنَهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ. وَنَصَبَ الْمُسْتَضْعَفِينَ عَلَى الْاسْتِثْنَاءِ مِنَ الْهَاءِ وَالْمِيمِ اللَّتَيْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

يَقُولُ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ يَعْنِي: هَؤُلَاءِ الْمُسْتَضْعَفِينَ، يَقُولُ: لَعَلَّ اللهَّ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ لِلْعُذْرِ الَّذِي هُمْ فِيهِ وَهُمْ مُؤْمِنُونَ، فَيَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بِالصَّفْحِ عَنْهُمْ فِي تَرْكِهِمُ الْهِجْرَةِ، إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهَا اخْتِيَارًا وَلَا إِيثَارًا مِنْهُمْ لِدَارِ الْكُفْرِ عَلَى دَارِ الْإِسْلَامِ، وَلَكِنْ لِلْعَجْزِ الَّذِي هُمْ فِيهِ عَنِ النُّقْلَةِ عَنْهَا، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ يَقُولُ: وَلَمْ يَزَلِ اللهُ عَفُوًّا، يَعْنِي ذَا صَفْحٍ بِفَضْلِهِ عَنْ ذُنُوبِ عِبَادِهِ بِتَرْكِهِ الْعُقُوبَةَ عَلَيْهَا، غَفُورًا سَاتِرًا عَلَيْهِمْ ذُنُوبِهِمْ بِعَفْوِهِ لَهُمْ عَنْهَا."

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن: "وقد جاء القرآن العظيم، بالوعيد الشديد، والتهديد الأكيد، على مجرد ترك الهجرة، كما في آية النساء، وقد ذكر المفسرون هناك، ما به الكفاية والشفاء، وتكلم عليها شيخنا محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله تعالى، وأفاد وأوفى، ودعوى التقية لا تجدي مع القدرة على الهجرة، ولذلك لم يستثن الله إلا المستضعفين من الأصناف الثلاثة.". الدرر السنية (٨/ ٣٥٦).

فهذا أوضح واضح جدًّا أنَّ هؤلاء خرجوا من الوعيد،(١) فلم يبق شُبهة،(٢) لكن لمن طَلب العلم،(٣) بخلافِ من لم يطلبه،(٤) بل قال الله فيهم: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة البقرة:١٨]. (٥)

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

(٢) قال المصنف: "ولا يفهم هذا إلا من فهم أن أهل الدين اليوم لا يعدونه ذنبا".

وقال الشيخ محمد بن عبد اللطيف: "فلا يقال: إنه بمجرد المجامعة والمساكنة يكون كافرًا، بل المراد أن من عجز عن الخروج من بين ظهراني المشركين، وأخرجوه معهم كرهًا، فحكمه حكمهم في القتل، وأخذ المال، لا في الكفر".

انظر مختصر السيرة (ص/ ٣٨) والدرر السنية (٨/ ٤٥٧)

(٣) لأن الإنسان لا يستغنِي عن طلب العلم. مختصر السيرة (ص/ ٣٩).

(٤) لإن هذه وأمثالها: لا تعرف إلا بالتَّنبيه. فإذا كانت قد أشكلت على الصحابة قبل نزول الآية، فكيف بغيرهم؟ مختصر السيرة (ص/ ٣٩).

(٥) ﴿صُمٌّ﴾ أي: عن سماع الخير، ﴿بُكْمٌ﴾ [أي]: عن النطق به، ﴿عُمْيٌ﴾ عن رؤية الحق، ﴿فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ} لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال، فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعا منهم. انظر تفسير السعدي (ص/ ٤٤).

ومن فهم هذا الموضع[١] والذي قبله،[٢] فَهِم كلام[٣] الحسن البصري،[٤] قال: «ليس الإيمان بالتحلِّي[٥] ولا بالتمنِّي،[٦] ولكن ما وقر في القلوب،[٧] وصدقته

---

(١) أي: الموضع الخامس وهي قصة الهجرة.

(٢) أي: الموضع الرابع وهي قصة أبي طالب.

(٣) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٧/ ٢٧٤) قول الحسن هذا بلفظ: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال من قال حسنا وعمل غير صالح رد الله عليه قوله ومن قال حسنا وعمل صالحا رفعه العمل، ذاك بأن الله يقول (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقال رواه عباس الدوري حدثنا حجاج حدثنا أبو عبيدة الناجي عن الحسن".

(٤) هُوَ: الحَسَنُ بنُ أَبِي الحَسَنِ يَسَارٍ، أَبُو سَعِيْدٍ، مَوْلَى زَيْدِ بنِ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيُّ. سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٣).

(٥) بالحاء المهملة بعد المثناة الفوقية أي التزين بالقول والعمل كما كان في المنافقين. التنوير شرح الجامع الصغير للصنعاني (٩/ ٢٢٣).

(٦) أي: بالتشهي والرجاء والكلام ومجرَّد الادَّعاء، قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٧/ ٢٩٤): " وَقَوْلُهُ: (لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي) يَعْنِي الْكَلَامَ، وَقَوْلُهُ: (بِالتَّحَلِّي) يَعْنِي أَنْ يَصِيرَ حِلْيَةً ظَاهِرَةً لَهُ فَيُظْهِرُهُ مِنْ غَيْرِ حَقِيقَةٍ مِنْ قَلْبِهِ.

وَمَعْنَاهُ لَيْسَ هُوَ مَا يَظْهَرُ مِنْ الْقَوْلِ وَلَا مِنْ الْحِلْيَةِ الظَّاهِرَةِ، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ، فَالْعَمَلُ يُصَدِّقُ أَنَّ فِي الْقَلْبِ إيمَانًا، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ كَذَّبَ أَنَّ فِي قَلْبِهِ إيمَانًا؛ لِأَنَّ مَا فِي الْقَلْبِ مُسْتَلْزِمٌ لِلْعَمَلِ الظَّاهِرِ؛ وَانْتِفَاءُ اللَّازِمِ يَدُلُّ عَلَى انْتِفَاءِ الْمَلْزُومِ."

(٧) بالقاف والراء بزنة حمل (في القلب) أي قر فيه وثبت، وذلك معرفة الله تعالى، وهو نور يقذفه الله في قلب من طهر بالمجاهدة قلبه وأعلى رتبة أهل هذا النور هو المصطفى ﷺ. التنوير شرح الجامع الصغير للصنعاني (٩/ ٢٢٣).

الأعمال،[١] وذلك أن الله يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [سورة فاطر: ١٠]». [٢]

❁ ❁ ❁

(١) وإذا وقع النور في القلب فإنه يصدقه العمل بلا شك، والمراد به العمل الذي أمر الله تعالى به ورسوله.
فليس الإيمان مجرَّد ادَّعاء ليس كما يظنه غالب الناس اليوم، بل كما قال الحسن البصري.
يقول العلامة الفوزان: "فالإيمان ما صدقته الأعمال ومنها الهجرة لأنها من الأعمال."
انظر التنوير شرح الجامع الصغير للصنعاني (٩/ ٢٢٣) ومختصر السيرة (ص/ ٣٩) وسلسلة شرح الرسائل (ص/ ٩٣).

(٢) قال الشوكاني في الفتح القدير (٤/ ٣٩٠): " أَيْ: إِلَى اللهَّ يَصْعَدُ لَا إِلَى غَيْرِهِ، وَمَعْنَى صُعُودِهِ إِلَيْهِ: قَبُولُهُ لَهُ، أَوْ صُعُودُ الْكَتَبَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِمَا يَكْتُبُونَهُ مِنَ الصُّحُفِ، وَخَصَّ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ بِالذِّكْرِ لِبَيَانِ الثَّوَابِ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَتَنَاوَلُ كُلَّ كلام يتصف بكونه طيبا من ذكر الله، وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ، وَتِلَاوَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَلَا وَجْهَ لِتَخْصِيصِهِ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، أَوْ بِالتَّحْمِيدِ وَالتَّمْجِيدِ. وَقِيلَ الْمُرَادُ بِصُعُودِهِ: صُعُودُهُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا.
وَمَعْنَى: (وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ يَرْفَعُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ، وَشَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالضَّحَّاكُ، وَوَجْهُهُ: أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ إِلَّا مَعَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَقِيلَ إِنَّ فَاعِلَ يَرْفَعُهُ: هُوَ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، وَمَفْعُولَهُ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَوَجْهُهُ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لَا يُقْبَلُ إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ.
وَقِيلَ: إِنَّ فَاعِلَ يَرْفَعُهُ ضَمِيرٌ يَعُودُ إِلَى اللهَّ جَلَّوَعَلَا. وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللهَّ يَرْفَعُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ عَلَى الْكَلِمِ الطَّيِّبِ، لِأَنَّ الْعَمَلَ يُحَقِّقُ الْكَلَامَ، وَقِيلَ: وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ، وَهُوَ الَّذِي أَرَادَ الْعِزَّةَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْمَعْنَى أَنَّ اللهَّ يَرْفَعُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لِصَاحِبِهِ، أَيْ: يَقْبَلُهُ."

المَوضِعُ السّادِسُ: قِصّة الرِّدّة بَعدَ مَوتِه ﷺ (١)

(١) لما سمعت العرب بوفاة رسول الله ﷺ، ارتد كثير عن الإسلام، وهم بالنسبة لغيرهم طائفة قليلة، فقاتلهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالصحابة، حتى دخلوا من الباب الذي خرجوا منه، وقتل من قتل منهم على ردته، وَعَنِ ابْنِ المَدِيْنِيِّ، قَالَ: أَعَزَّ اللهُ الدِّيْنَ بِالصِّدِّيْقِ يَوْمَ الرِّدَّةِ، وَبِأَحْمَدَ يَوْمِ المِحْنَةِ.

ومقصود المصنف من ذكر هذه القصة الرد على علماء الضلال الذين يقولون: من نطق بكلمة الإسلام فهو مسلم ولو حصل منه ما حصل من النواقض، فيدَّعون أن من أتى بناقض من نواقض لا إله إلا الله كدعاء الغائبين والأموات والنذر لهم والذبح أنه لا يكفر بعد توفر الشروط وانتفاء الموانع، ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٩].

ويبيِّن المصنِّف في هذا الموضع أن من المرتدين من كان ينطق بهذه الكلمة، لأن لهذ الكلمة شروطا وأركانا لا بدَّ من توفرها. ومراعاة نواقضها. وقد كان شيحنا العلامة يحيى بن علي حفظه الله يقول: إنكار الردة ردَّة.

والعلماء يقولون: مَنْ أَظْهَرَ الشهادة بِأَنْ (لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله) أو شَيْئًا مِنْ عَلَامَاتِ الْإِسْلَامِ ولم يتبين من أفعاله ما يخالف معنى التوحيد حقنت دَمُهُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ مَا يُوجِبُ إِرَاقَتَهُ مِمَّا فُرِضَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ الْمُبِيحِ لِقَتْلِ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ، ومن ارتكب ناقضا من نواقض الإسلام فإنها لا تنفعه، بل يكفر بذلك، ولو أقر بالشهادتين، وكذلك من عمل بجميع الأركان ممن ولد في الإسلام، لكنه مع ذلك قد جحد شيئًا مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وابتدع في الإسلام بدعة تخرجه منه كفر.

وأما من استقام على معناها وفعل ما تأمرها، وترك ما تنهاها فيجب الكفُّ عنه.

وأما من قال: (لا إله إلا الله) في حالة الحرب فله حالتان:

الأولى: أنه لا يتلفظ بها في حال شركه وكفره، كحال المشركين الذين في زمن النبي ﷺ، فهذا إذا قال:(لا إله إلا الله)، وجب الكف عنه، لأنها دليل على إسلامه وإقراره، لأن المشركين في زمن النبي ﷺ لا يقولونها، وإذا قالها أحدهم كانت دالة على إسلامه.

والثَّانية: أنه يتلفظ بـ(لا إله إلا الله)، في حال كفره وردته، ويفعل من الأفعال ما يوجب كفره وأخذ ماله، فهذا يقتل ويباح دمه وماله، كالرَّافضة.

=

فمن سمِعَها[١] لا يبقى[٢] في قلبه مثقال ذرة من شبهة الشياطين[٣] الذين يسمون العلماء[٤]وهي قولهم: هذا هو الشرك،[٥] لكن يقولون: لا إله إلا الله، ومن قالها لا يكفر بشيء.[٦]

= انظر الدرر السنية (١١/ ٣٨٧) (٩/ ٢٣٩) ومجموعة التوحيد (ص/ ١٣٩) والتمهيد (١٠/ ١٥٣) والفتح (٨/ ٢٥٩) والفتح الرباني للشوكاني (١/ ٣٤٧) والضياء الشارق (ص/ ١٥٧، ٣٥١) وشرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص/ ٥٤) وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٢٠) وسير أعلام النبلاء (١١/ ١٩٦).

(١) أي: هذه القصة سمع فهم وتدبر.

(٢) في نسخة: (ثم بَقيَ). والمثبت أوضح.

(٣) إنما قال: شياطين لأنهم يضلون الناس كما يضلهم الشيطان، ومنه الإنس والجن.

(٤) أي: في زمانه، وفي مختصر السيرة (ص/ ٤٣): "العلماء في زماننا يقولون: من قال: (لا إله إلا الله) فهو المسلم، حرام المال والدم لا يُكَفّر ولا يقاتل، حتى إنهم يصرحون بذلك في شأن البدو الذين يكذبون بالبعث. وينكرون الشرائع.

ويزعمون أن شرعهم الباطل هو حق الله، ولو طلب أحد منهم خصمه أن يخاصمه عند شرع الله لعدوه من أنكر المنكرات، بل من حيث الجملة: إنهم يكفرون بالقرآن من أوله إلى آخره. ويكفرون بدين الرسول كله، مع إقرارهم بذلك بألسنتهم، وإقرارهم: أن شرعهم أحدثه آباؤهم لهم كفرًا بشرع الله."

(٥) أي: يعترفون أن هذا هو الشرك، ولكن لا يكفرون فاعله بعد إقامة الحجة عليهم، وفي ذلك يقول المصنف كما في الدرر السنية (١٠/ ١١٣): "فلما اشتهر عني هؤلاء الأربع، صدقني من يدعي أنه من العلماء في جميع البلدان، في التوحيد، وفي نفي الشرك، وردوا عليَّ التكفير والقتال."

(٦) أي: ما دام أنه يقول: لا إله إلا الله، فهذه الأمور لا تضره. سلسلة شرح الرسائل (ص/ ٩٤).

وأعظم من ذلك وأكبر: تصريحهم بأن البوادي ليس معهم من الإسلام شعرة،[١] ولكن يقولون: لا إله إلا الله، وهم بهذه اللفظة إسلام،[٢]

---

(١) لأجل النواقض الكثيرة الموجودة عنهم مع العناد وعدم قبول الحجة.

(٢) يريدون بذلك أنهم بهذا التلفظ صاروا مسلمين، وهذا باطل، لأن المراد من هذه الكلمة قولها على وجه يحصل به إفراد الله بالعبادة، وترك ما يعبد معه، والبراءة منه، وأما مجرد اللفظ مع المخالفة للحقيقة فليس مرادً بإجماع أهل العلم، وذلك أن الإيمان لا بد فيه من اعتقاد الجنان، وإقرار اللسان، وعمل الأركان، وجهلوا من اقتصر في تعريف مسماه على أحد هذه الثلاثة.

قال شيخ الإسلام: " مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ بِمُجَرَّدِ تَلَفُّظِ الْإِنْسَانِ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ بِحَالٍ: فَهُوَ ضَالٌّ، مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، وَإِجْمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُ قَدْ تَلَفَّظَ بِهَا الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ، وَهُمْ كَثِيرُونَ، بَلْ الْمُنَافِقُونَ قَدْ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَلَكِنْ لَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُمْ".

وقال ابن القيم: "وَالشَّارِعُ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ حَاصِلًا بِمُجَرَّدِ قَوْلِ اللِّسَانِ فَقَطْ، فَإِنَّ هَذَا خِلَافُ الْمَعْلُومِ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُونَهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَهُمْ تَحْتَ الْجَاحِدِينَ لَهَا فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، فَلَا بُدَّ مِنْ قَوْلِ الْقَلْبِ، وَقَوْلِ اللِّسَانِ، وَقَوْلُ الْقَلْبِ يَتَضَمَّنُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا، وَالتَّصْدِيقِ بِهَا، وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ مَا تَضَمَّنَتْهُ - مِنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُنْفِيَّةِ عَنْ غَيْرِ الله، الْمُخْتَصَّةِ بِهِ، الَّتِي يَسْتَحِيلُ ثُبُوتُهَا لِغَيْرِهِ، وَقِيَامُ هَذَا الْمَعْنَى بِالْقَلْبِ عِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَيَقِينًا، وَحَالًا - مَا يُوجِبُ تَحْرِيمَ قَائِلِهَا عَلَى النَّارِ."

قال العلامة الفوزان: "يا سبحان الله لا إله إلا الله ليست مجرَّدُ كلمة، لو كان هذا هو الإسلام صار كل الناس مسلمين."

انظر سلسلة شرح الرسائل (ص/ ٩٧) والدرر السنية (٢/ ١١٦) ومصباح الظلام (ص/ ٢٠٢) والفتاوى الكبرى (٢/ ٣٧٧) ومدارج السَّالكين (١/ ٣٣٩).

وحرَّم الإسلام مالهم ودمهم،[١] مع إقرارهم أنهم تركوا الإسلام كله،[٢] ومع علمهم بإنكارهم البعث،[٣] واستهزائهم بمن أقرَّ به،[٤] واستهزائهم بالشرائع،[٥] وتفضيلهم دين آبائهم مخالفًا لدين النبي ﷺ.[٦]

---

(١) أي: أن دماءهم وأموالهم معصومة، فلا يحل قتالهم ولا قتلهم، وأخذ أموالهم.

(٢) في مختصر السيرة (ص/ ٤٣): "وعلماء الوقت يعترفون بهذا كله. ويقولون ما فيهم من الإسلام شعرة. وهذا القول تلقته العامة عن علمائهم، وأنكروا به ما بينه الله ورسوله. بل كَفّروا من صدق الله ورسوله في هذه المسألة، وقالوا: من كَفّر مسلما فقد كفر. والمسلم عندهم: الذي ليس معه من الإسلام شعرة، إلا أنه يقول بلسانه: "لا إله إلا الله" وهو أبعد الناس عن فهمها وتحقيق مطلوبها علما وعقيدة وعملا."

(٣) وهذا ناقض من نواقض الإسلام، وأجمع عليه العلماء على أن من أنكر البعث أنه كافر مرتد. قاله المصنف. انظر في الدرر السنية (١٠/ ١١٣).

(٤) أي: يسخرون المؤمنين الذين يقرون بالبعث لأجل إقرارهم، وهذا ناقض أيضا. المجموع الثمين للشيخ ابن عثيمين (١/ ٦٥).

(٥) وهذا ناقض أيضا، يقول الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد (ص/ ٥٣٦): "فمن استهزأ بالله، أو بكتابه أو برسوله، أو بدينه، كفر ولو هازلًا لم يقصد حقيقة الاستهزاء إجماعًا."

(٦) وهذا ناقض أيضا، يقول العلامة ابن باز كما في مجموع فتاويه (١/ ٢٦٩): " وقد أجمع العلماء على أن من زعم أن حكم غير الله أحسن من حكم الله، أو أن هديِ غير رسول الله ﷺ أحسن من هدي الرسول ﷺ فهو كافر."

ومع هذا كله، يصرِّح هؤلاء الشياطين،(١) المردة الجَهَلة،(٢) أنَّ البدو إسلام، ولو جرى منهم ذلك كله،(٣) لأنهم يقولون: لا إله إلا الله أيضًا.(٤)

ولازم قولهم: أن اليهود أسلموا، لأنهم يقولونها.(٥)

---

(١) الذين يسمون العلماء كما تقدم.

قال العلامة الفوزان: "والذي يقول هذا ليس من العوام إنهم علماء، علماء في الفقه والنحو والصرف لكن في العقيدة ما عندهم ولا حبة خردل من العلم الصحيح، وعقيدتهم عقيدة المتكلمين، ولا يدرسون التوحيد من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ". سلسلة شرح الرسائل (ص/ ٩٩).

(٢) عن توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحقائق دينه.

(٣) من الكفريات الواضحة الجلية، التي لا خلاف بين أهل العلم في كونها كفرا.

(٤) يقول أيضا متعجبا كما في الدرر السنية (١٠/ ٨): " والعجب ممن يخفى عليه جواب هذا! إذا أقروا أن هذا دين الله ورسوله، كيف لا يكفر من أنكره، وقتل من أمر به وحبسهم.

كيف لا يكفر من أمر بحبسهم؟! كيف لا يكفر من جاء إلى أهل الشرك، يحثهم على لزوم دينهم وتزيينه لهم؟! ويحثهم على قتل الموحدين، وأخذ ماله؟!

كيف لا يكفر، وهو يشهد أن هذا الذي يحث عليه، أن الرسول ﷺ أنكره ونهى عنه؟! وسماه الشرك بالله، ويشهد أن هذا الذي يبغضه، ويبغض أهله، ويأمر المشركين بقتلهم، هو دين الله ورسوله!."

(٥) أي: كلمة التوحيد، وهم لا يصرحون أن اليهود مسلمين لذلك قال المصنف: ولازم قولهم، ولازم المذهب ليس بمذهب إلا إذا التزمه.

وأيضًا كفر هؤلاء أَغلَظُ من كفر اليهود بأضعَاف مُضَاعفة،[١] أعني: البَوَادي المتَّصِفين بما ذكرنا.[٢]

---

(١) قَالَ الخَلِيلُ: التَّضْعِيفُ: أَنْ يُزادَ على أَصْلِ الشَّيْءِ، فيُجْعَلَ مِثْلَيْنِ أَو أَكْثَرَ. وضَاعَفَه مُضاعَفَةً: أَي أَضْعَفَه من الضَّعْفِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافًا كَثِيرَةً﴾. تاج العروس (٢٤/ ٥١).

(٢) أي: الكفريات من إنكار البعث وتفضيل دين آبائهم على دين الله ورسوله وغيرها.

قال المصنف كما في الدرر السنية (١٠/ ١١٣): "من المعلوم عند الخاص والعام، ما عليه البوادي أو أكثرهم، فإن كابر معاند لم يقدر على أن يقول: إن عنزة وآل ظفير وأمثالهم كلهم، مشاهيرهم والأتباع، إنهم مقرون بالبعث، ولا يشكون فيه، ولا يقدر أن يقول: إنهم يقولون: إن كتاب الله عند الحضر، وإنهم عائفوه، ومتبعو ما أحدث آباؤهم، مما يسمونه الحق، ويفضلونه على شريعة الله.

فإن كان للوضوء ثمانية نواقض، ففيهم من نواقض الإسلام أكثر من مائة ناقض. فلما بينت ما صرحت به آيات التنْزيل، وعلمه الرسول ﷺ أمته، وأجمع عليه العلماء: أن من أنكر البعث، أو شك فيه، أو سب الشرع، أو سب الأذان إذا سمعه، أو فضل فراضة الطاغوت على حكم الله، أو سب من زعم أن المرأة ترث، أو أن الإنسان لا يؤخذ في القتل بجريرة أبيه وابنه، أنه كافر مرتد، قال علماؤكم: معلوم أن هذا حال البوادي لا ننكره، ولكن يقولون: لا إله إلا الله، وهي تحميهم من الكفر، ولو فعلوا كل ذلك، ومعلوم أن هؤلاء أولى وأظهر من يدخل في تقريركم.

فلما أظهرت تصديق الرسول ﷺ فيما جاء به، سبوني غاية المسبَّة، وزعموا أني أكفّر أهل الإسلام، وأستحل أموالهم، وصرحوا: أنه لا يوجد في جزيرتنا رجل واحد كافر، وأن البوادي يفعلون من النواقض، مع علمهم أن دين الرسول عند الحضر، وجحدوا كفرهم، وأنتم تذكرون: أن من رد شيئا مما جاء به الرسول بعد معرفته، أنه كافر."

والذي يُبيِّن ذلك[١] من قصة الرِّدَّة،[٢] أن المرتَدِّين افترقوا في ردَّتهم،[٣]

---

(١) أي: الذي يبيِّن أن (لا إله إلا الله) لا تنفع من ارتكب ناقضا من نوقض الإسلام، وهذا هو موطن الشاهد من قصَّة الرِّدَّة.

(٢) وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ: "لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ ، وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ، وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى الله "، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَالله لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَالله لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَوَالله مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ".

(٣) أهل الردَّة الذين ارتدُّوا في زمن أبي بكر رضي الله عنه على قسمين:

القسم الأوَّل: قوم ارْتَدُّوا عَنِ الدِّينِ وَنَابَذُوا الْمِلَّةَ وَعَادُوا إِلَى الْكُفْرِ وَهَذِهِ الْفِرْقَةُ طَائِفَتَانِ:

الطَّائفة الأولى: ارْتَدُّوا عَنِ الدِّينِ، وَأَنْكَرُوا الشَّرَائِعَ، وَتَرَكُوا الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَغَيْرَهَا مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَعَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وهؤلاء ليسوا بكثير خلافا للخطابي وغيره.

والطَّائفة الثانية: من ثبت على الشهادة على حسب دعواهم، ولكن أثبتوا نبوَّة أناس كذابين بعد النبي ﷺ، وهم كثير، ومنهم أَصْحَابُ مُسَيْلِمَةَ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِهِمُ الَّذِينَ صَدَّقُوهُ عَلَى دَعْوَاهُ فِي النُّبُوَّةِ، وَأَصْحَابُ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ وَمَنْ كَانَ مِنْ مُسْتَجِيبِيهِ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ وَغَيْرِهِمْ، فَقَاتَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى قَتَلَ اللهُ مُسَيْلِمَةَ بِالْيَمَامَةِ، وَالْعَنْسِيَّ بِصَنْعَاءَ، وَانْفَضَّتْ جُمُوعُهُمْ وَهَلَكَ أَكْثَرُهُمْ.

والقسم الثَّاني: الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وهم طائفتان أيضا:

الأولى: من أقر بِالصَّلَاةِ وَأَنْكَرُوا فَرْضَ الزَّكَاةِ، وجحد بها، أو امتنع منها، فهؤلاء كفار.

والثَّانية: من أقر بالصلاة وأقر بالزكاة، ولم يجحد بها، ولم يمتنع من أدائها، وإنما منع أَدَائِهَا إِلَى الْإِمَامِ بخلا، وَهَؤُلَاءِ فِي الْحَقِيقَةِ أَهْلُ بَغْيٍ، وليسوا بكفار، وَإِنَّمَا لَمْ يُدْعَوْا بِهَذَا الِاسْمِ فِي ذلك الزَّمَانِ خُصُوصًا لِدُخُولِهِمْ فِي غِمَارِ أَهْلِ الرِّدَّةِ فَأُضِيفَ الِاسْمُ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى الرِّدَّةِ إِذْ كَانَتْ أَعْظَمَ الْأَمْرَيْنِ وَأَهَمَّهُمَا.

وَقَدْ كَانَ فِي ضِمْنِ هَؤُلَاءِ الْمَانِعِينَ لِلزَّكَاةِ مَنْ كَانَ يَسْمَحُ بِالزَّكَاةِ وَلَا يَمْنَعُهَا إِلَّا أَنَّ رُؤَسَاءَهُمْ صَدُّوهُمْ عَنْ =

فمنهم من كذَّب النَّبيَّ ﷺ ورجعوا إلى عبادة الأوثان،(١) وقالوا: لو كان نبيًّا ما مات، (٢) وَمِنهم مَن ثبت على الشَّهادتين،(٣) ولكن أقرَّ بِنبوَّة مُسَيلَمة،(٤) ظنًّا أنَّ النبي ﷺ أشرَكَه في النُّبوَّة،(٥)

= ذَلِكَ الرَّأْيِ وَقَبَضُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي ذَلِكَ، ولعل عمر استشكل قتال هذه الطائفة الأخيرة لكونهم مسلمين، ولكنه بعد ذلك اتفقوا على ذلك، وما وقع في كتب الشروح وغيره أن الارتدادَ قد كان عمَّ بلادَ العربِ كُلَّها فيه نظر، بل هو خلافُ الواقع. وقد ذكر ابن حَزْم: أنه لم يرتدَّ إلا شِرْذِمةٌ قليلةٌ منهم، وكثير ممن أطلق عليهم لفظ الردة كانوا من هذه الطائفة الأخيرة، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

انظر معالم السنن (٢/ ٣) وشرح مسلم للنووي (١/ ٢٠٣) وعمدة القاري للعيني (٨/ ٢٤٤) وفيض الباري على صحيح البخاري للهندي (٣/ ٩١) والفصل في الملل والنحل (٢/ ٦٦).

(١) أي: عبدوا الأصنام والأحجار بعد أن تركوه.

(٢) وهل النبي إله حتى لا يموت؟، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر (٣١)]

(٣) أي: لم يعبدوا الأصنام وإلا فمن وقع في ناقض لم يثبت على الشهادتين.

(٤) واسمه هارون بن حبيب الحنفي.

قال ابن كثير في البداية (٩/ ٤٣٧): "وَانْحَازَ إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ بَنُو حَنِيفَةَ وَخَلْقٌ كَثِيرٌ بِالْيَمَامَةِ."

(٥) ثبت في الصحيحين عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَدِمَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: إِنْ جَعَلَ لِي مُحَمَّدٌ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ تَبِعْتُهُ، فَقَدِمَهَا فِي بَشَرٍ كَثِيرٍ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَمَعَهُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَفِي يَدِ النَّبِيِّ ﷺ قِطْعَةُ جَرِيدَةٍ، حَتَّى وَقَفَ عَلَى مُسَيْلِمَةَ فِي أَصْحَابِهِ، قَالَ: «لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا، وَلَنْ أَتَعَدَّى أَمْرَ اللهِ فِيكَ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ اللهُ، وَإِنِّي لَأُرَاكَ الَّذِي أُرِيتُ فِيكَ مَا أُرِيتُ، وَهَذَا ثَابِتٌ يُجِيبُكَ عَنِّي» ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ".

لأن مسيلمة أقام شهود زور شهدوا له بذلك،[١] فصدقهم كثير من الناس، ومع هذا أجمع العلماء أنهم مرتدُّون ولو جهلوا ذلك،[٢] ومن شك في ردَّتهم فهو كافر.[٣]

فإذا عرفت أن العلماء أجمعوا أن الذين كذَّبوا النبي ﷺ ورجعوا إلى عبادة الأوثان،[٤] وشتموا رسول الله ﷺ،[٥] هم، ومن أقر بنبوة مسيلمة في حال واحدة،[٦] ولو ثبت على الإسلام كله.[٧]

---

(١) وفيهم رجل من أصحابه معروف بالعلم والعبادة، يقال له: الرَّجال، فصدقوه لأجل ما عرفوا فيه من العلم والعبادة. ففيه يقول بعضهم ممن ثبت منهم:

يا سعاد الفؤاد بنت أثال *** طال ليلي بفتنة الرجال

فتن القوم بالشهادة والل *** هـ عزيز ذو قوة ومحال

انظر مختصر السيرة للمصنف (ص/ ٤١).

(٢) أي: لو جهلوا أن النبي ﷺ ما أشركهم في النبوة، وإلا فقد كانوا يعلمون أنه لا نبي بعد محمد ﷺ كما صرح الله ذلك بقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب (٤٠)]. لأن هذا هو المعلوم قطعا عند أهل الإسلام.

(٣) بعد البيان له وإقامة الحجة عليه، يقول سليمان بن عبد الله كما في الدّرر السنية (٨/ ١٦٠): "فإن كان شاكًا في كفرهم أو جاهلًا بكفرهم، بينت له الأدلة من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ على كفرهم، فإن شك بعد ذلك أو تردد، فإنه كافر بإجماع العلماء: على أن من شك في كفر الكافر، فهو كافر. "

(٤) الذين هم من أقسام المرتدين.

(٥) بقولهم: لو كان نبيا ما مات.

(٦) أي: كلهم مرتدون خارجون عن ملة الإسلام.

(٧) لأن من كفر ببعض كمن كفر بالجميع.

ومنهم من أقرّ بالشَّهادتين،[١] وصدق طليحة[٢] في دعواه النُّبوة.[٣]

ومنهم من صدَّق العنسيّ[٤] صاحب صنعاء.[٥]

وكل هؤلاء[٦] أجمع العلماء أنهم مرتدون.[٧]

ومنهم أنواع أخر[٨].

---

(١) أي: لم يعبدوا الأصنام وإلا فمن وقع في ناقض لم يقر على الشهادتين، بل كفر بها.

(٢) قال ابن كثير في البداية (٩/ ٤٣٧): "وَالْتَفَتَ عَلَى طُلَيْحَةَ الْأَسَدِيِّ بَنُو أَسَدٍ وَطَيِّئٌ، وَبَشَرٌ كَثِيرٌ أَيْضًا."

(٣) أي: أنه نبي.

(٤) وَاسْمُهُ عَبْهَلَةُ بْنُ كَعْبِ بْنِ غَوْثٍ، وَاحْتَلَّ بَلْدَةَ صَنْعَاءَ لِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً مِنْ مَخْرَجِهِ. البداية والنهاية (٩/ ٤٢٩).

(٥) في مختصر السيرة (ص/ ٤١): "وقوم من أهل اليمن، صدقوا الأسود العنسي في ادعائه النبوة."

(٦) أي: الذين صدقوا مسيلمة والعنسي وطليحة والذين رجعوا إلى عبادة الأوثان.

(٧) وفي نسخة: (سواء) وفي شرح مسلم للنووي (١/ ٢٠٢): "وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ أَهْلَ الرِّدَّةِ كَانُوا أَصْنَافًا مِنْهُمْ مَنِ ارْتَدَّ عَنِ الْمِلَّةِ وَدَعَا إِلَى نُبُوَّةِ مُسَيْلِمَةَ وَغَيْرِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَأَنْكَرَ الشَّرَائِعَ كُلَّهَا وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ الصَّحَابَةُ كُفَّارًا، وَلِذَلِكَ رَأَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَبْيَ ذَرَارِيِّهِمْ وَسَاعَدَهُ عَلَى ذَلِكَ أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ، وَاسْتَوْلَدَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَارِيَةً مِنْ سبى بنى حنيفة، فولدت له محمد الذى يدعى بن الْحَنَفِيَّةِ، ثُمَّ لَمْ يَنْقَضِ عَصْرُ الصَّحَابَةِ حَتَّى أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْمُرْتَدَّ لَا يُسْبَى.

فَأَمَّا مَانِعُو الزَّكَاةِ مِنْهُمُ الْمُقِيمُونَ عَلَى أَصْلِ الدِّينِ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ بَغْيٍ وَلَمْ يُسَمَّوْا عَلَى الِانْفِرَادِ مِنْهُمْ كُفَّارًا وَإِنْ كَانَتِ الرِّدَّةُ قَدْ أُضِيفَتْ إِلَيْهِمْ لِمُشَارَكَتِهِمُ الْمُرْتَدِّينَ فِي مَنْعِ بَعْضِ مَا مَنَعُوهُ مِنْ حُقُوقِ الدِّينِ."

(٨) كالذين صدقوا سَجَاحِ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدِ بْنِ عُقْفَانَ التَّغْلِبِيَّةُ مِنَ الْجَزِيرَةِ، وَهِيَ مِنْ نَصَارَى الْعَرَبِ، وَقَدِ ادَّعَتِ النُّبُوَّةَ. البداية والنهاية (٩/ ٤٥٧).

آخرهم[١] الفجاءة السلمي[٢] لما وفد على أبي بكر،[٣] وذكر له أنه يريد قتال المرتدِّين، ويطلب من أبي بكر أن يمدَّه،[٤] فأعطاه سلاحًا ورواحل، فاستعرض السلمي المسلم والكافر يأخذ أموالهم،[٥] فجهز أبو بكر جيشًا لقتاله.[٦]

---

(١) في الدرر السنية (أنواع أخر منهم) ولعل ما في الدرر هو الصواب. من مؤلفات الشيخ (١/ ٣٦١).

وقصة الفجاءة السلمي قصة مشهورة في كتب التاريخ، وفي أسانيدها مجاهيل أو متروكون، فقد رواها ابن عبد البر في الاستيعاب (٢/ ٧٧٦) وفي إسناده سيف بن عمر التميمي كذاب متهم بالزندقة، ورواها البلاذي في فتوح البلدان (ص/ ٢٨٢) وشيخه داود لا يعرف، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

وهذه القصة استغلته الرافضة في الطعن في أبي بكر رضي الله عنه، فَفِي منهاج السنة لابن تيمية (٥/ ٤٩٥):

" قَالَ الرَّافِضِيُّ: "وَأَحْرَقَ الْفُجَاءَةَ السُّلَمِيَّ بِالنَّارِ، وَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْإِحْرَاقِ بِالنَّارِ".

الْجَوَابُ: أَنَّ الْإِحْرَاقَ بِالنَّارِ عَنْ عَلِيٍّ أَشْهَرُ وَأَظْهَرُ مِنْهُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ عَلِيًّا أُتِيَ بِقَوْمٍ زَنَادِقَةٍ مِنْ غُلَاةِ الشِّيعَةِ، فَحَرَّقَهُمْ بِالنَّارِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحَرِّقْهُمْ بِالنَّارِ، لِنَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُعَذَّبَ بِعَذَابِ اللهِ، وَلَضَرَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: " «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» ".

فَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيًّا، فَقَالَ: وَيْحَ ابْنِ أُمِّ الْفَضْلِ مَا أَسْقَطَهُ عَلَى الْهُنَاتِ.

فَعَلِيٌّ حَرَّقَ جَمَاعَةً بِالنَّارِ، فَإِنْ كَانَ مَا فَعَلَهُ أَبُو بَكْرٍ مُنْكَرًا، فَفِعْلُ عَلِيٍّ أَنْكَرُ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ فِعْلُ عَلِيٍّ مِمَّا لَا يُنْكَرُ مِثْلُهُ عَلَى الْأَئِمَّةِ، فَأَبُو بَكْرٍ أَوْلَى أَنْ لَا يُنْكَرَ عَلَيْهِ."

(٢) وَاسْمُهُ إِيَاسُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عُمَيْرَةَ بْنِ خِفَافٍ، مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ. البداية والنهاية (٩/ ٤٥٦).

(٣) الصديق خليفة رسول الله ﷺ.

(٤) أن يعينه ويغيثه.

(٥) أي: لم يفرق بين الكافر والمسلم.

(٦) أي: الفجاءة السلمي.

فلما أحسَّ بالجيش،[١] قال لأميرهم: أنت أمير أبي بكر، وأنا أميره، ولم أكفر،[٢] فقال: إن كنت صادقًا فألق السّلاح، فألقاه،[٣] فبعث به إلى أبي بكر،[٤] فأمر بتحريقه بالنار وهو حيّ.[٥]

---

(١) شعر بقدوم الجيش.

(٢) أي: لم أرتد عن دين الله.

(٣) أي الفجاءة السلمي السلاح.

(٤) وهو في المدينة.

(٥) قال ابن كثير في البداية (٩/ ٤٥٦): "وَقَدْ كَانَ الصِّدِّيقُ حَرَّقَ الْفُجَاءَةَ بِالْبَقِيعِ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَ سَبَبُهُ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَيْهِ فَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، وَسَأَلَ مِنْهُ أَنْ يُجَهِّزَ مَعَهُ جَيْشًا يُقَاتِلُ بِهِ أَهْلَ الرِّدَّةِ، فَجَهَّزَ مَعَهُ جَيْشًا، فَلَمَّا سَارَ جَعَلَ لَا يَمُرُّ بِمُسْلِمٍ وَلَا مُرْتَدٍّ إِلَّا قَتَلَهُ وَأَخَذَ مَالَهُ، فَلَمَّا سَمِعَ الصِّدِّيقُ بَعَثَ وَرَاءَهُ جَيْشًا فَرَدَّهُ، فَلَمَّا أَمْكَنَهُ بَعَثَ بِهِ إِلَى الْبَقِيعِ، فَجُمِعَتْ يَدَاهُ إِلَى قَفَاهُ وَأُلْقِيَ فِي النَّارِ، فَحَرَّقَهُ وَهُوَ مَقْمُوطٌ."

ومسألة جواز التعذيب بالنار أو عدم جوازها خلافية بين أهل العلم، وبسطها في كتب الفقه. يقول ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٦): "وَقَدْ رُوِيَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ جَوَازُ التَّمْثِيلِ فِيهِ بِالتَّحْرِيقِ بِالنَّارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا فَعَلَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَغَيْرُهُ. وَرُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ أَنَّهُ حَرَقَ الْفُجَاءَةَ بِالنَّارِ... وَصَحَّ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ حَرَقَ الْمُرْتَدِّينَ، وَأَنْكَرَ ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَلَيْهِ".

فإذا كان هذا حكم الصحابة في هذا الرجل،[١] مع إقراره بأركان الإسلام الخمسة،[٢] فما ظنك بمن لم يقرّ من الإسلام بكلمة واحدة، إلا أنه يقول: (لا إله إلا الله) بلسانه،[٣] مع تصريحه بتكذيب معناها،[٤] وتصريحه بالبراءة من دين محمد ﷺ[٥] ومن كتاب الله؟!!.

ويقولون: هذا[٦] دين الحضر،[٧] وديننا دين آبائنا.[٨]

---

(١) وهو الإحراق.

(٢) الواردة في حديث ابن عمر في الصحيحين.

(٣) أي: يتلفظ بها.

(٤) الذي هو أنه لا يجوز أن يعبد غير الله، وهو يذبحون وينذرون لغير الله.

(٥) كقولهم: هذا دين الحضر وديننا دين آبائنا. كما سيأتي.

(٦) أي: ما أنتم عليه.

(٧) أي: المدن والقرى.

(٨) من الشرك وعبادة غير الله ونحوها، وهي نفس مقالة أعداء الأنبياء.

ثم يفتون[١] هؤلاء[٢] المَرَدَة[٣] الجهال أن هؤلاء[٤] مسلمون،[٥] ولو صرحوا بذلك كله،[٦] إذا قالوا: لا إله إلا الله. سبحانك هذا بهتان عظيم! [٧]

وما أحسن ما قاله واحد من البوادي،[٨] لما قدم علينا وسمع شيئًا من الإسلام،[٩] قال: أشهد أننا كفار -يعني هو وجميع البوادي-،[١٠] وأشهد أن المطوع الذي يسمينا إسلامًا أنه كافر. [١١]

---

(١) كذا في جميع ما لدينا من نسخ الكتاب وهو من باب (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار). من مؤلفات الشيخ (١/ ٣٦٢).

(٢) الشياطين الذين يسمون العلماء.

(٣) جمع مارد، وهو الخارج عن الطاعة والطاغي.

(٤) أهل البوادي.

(٥) ليسوا بكفار.

(٦) من العناد والشرك والمكابرة وتفضيل دينهم على دين الإسلام.

(٧) أي: ما يقولونه.

(٨) جمع بادية، وهم الأعراب.

(٩) مثل الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، الإيمان بالبعث والحساب، والحكم بما أنزل الله.

(١٠) هذا أعرابي جاء لدرس الشيخ، ولما عرف الإسلام معرفة صحيحة شهد على نفسه قبل أن يعرف الإسلام وعلى جماعته أنهم كفار، وشهد أن المطوع يعني العالم الذي يقول: إنكم مسلمون أنه كافر، لأنه حكم لهؤلاء الكفار بالإسلام وما أكثر أشباهه. سلسلة شرح الرسائل للعلامة الفوزان (ص/ ١٠٤).

(١١) وذلك بعد بيان الحجة عليه، لأن من أصول الإسلام أنه يجب اعتقاد كفر كل من لم يدخل في الإسلام من اليهود والنصارى وغيرهم، وتسميته كافرا ممن قامت عليه الحجة، وأنه عدو لله ورسوله والمؤمنين، وأنه من أهل النار، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾. اللجنة الدائمة (١٢/ ٢٧٨).

تمَّ والحمد لله[١] ربِّ العالمين.[٢]

وصلَّى الله على محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

❁ ❁ ❁

---

(١) قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (١٤/ ٣١٢): "الْحَمْدُ يَكُونُ عَلَى مَحَاسِنَ الْمَحْمُودِ مَعَ الْمَحَبَّةِ لَهُ كَمَا أَنَّ الذَّمَّ يَكُونُ عَلَى مَسَاوِيهِ مَعَ الْبُغْضِ لَهُ".

(٢) كل ما سوى الله عالم.

انتهيت من التعليق عليها يوم الثلثاء (٥/ ربيع الأول/ ١٤٤٠هـ).

ثم نقحته وهذبته ليلة الثلثاء (٢٧/ جمادى الأخر/ ١٤٤٢هـ)

كتبه أبو مشكور الإسرافيلي

عبد الشكور بن علي بن عبد الله الصومالي

حفظه الله ورعاه.

والحمد لله ربِّ العالمين.

فَهرسُ المحتَوياتِ

المقَدّمَة ٥
ترجمة المصنِّف ٦
[مُقدّمَةُ المُصنِّف] ٩
المَوضِعُ الأَوَّل: قِصَّةُ نُزُولِ الوَحيِ ١٢
المَوضِع الثَّانِي: المَرحَلَةُ الأُولى لِلدَّعوَةِ ٢٦
المَوضِعُ الثَّالِثُ: قِصَّةُ الغَرَانِيق ٣٥
المَوضِعُ الرَّابِعُ: قِصَّةُ أَبِي طَالِب ٤٢
المَوضِعُ الخَامِسُ: قِصَّة الهِجرَة ٥٠
المَوضِعُ السَّادِسُ: قِصَّة الرِّدَّة بَعدَ مَوتِه ﷺ ٦٢
فَهرسُ المحتَوياتِ ٧٧